آثار الشيخ زيد الفياض رحمه الله (١١)

دفاع عن معاوية

تأليف فضيلة الشيخ

زيد بن عبد العزيز الفياض

(١٣٥٠-١٤٣١هـ)

دار الإمام أحمد للنشر

هذا الكتاب منشور في

دفاع عن معاوية

تأليف فضيلة الشيخ

زيد بن عبد العزيز الفياض

رحمه الله

(١٣٥٠ – ١٤١٦هـ)

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، محمد أفضل خلقه وسيد ولد آدم، وعلى آله وأصحابه، ومَن سار على نهجهم إلى أن تقوم الساعة.

وبعدُ، فقد طالَعْتُ كتاب "معاوية، المطبوع ضمن سلسلة أعلام العرب[1] لمؤلفه الأستاذ: إبراهيم الأبياري.

ووجدت في الكتاب تحاملاً على معاوية، وخلطًا في الكلام وتعسُّفًا في الاستنتاج، وإيراد أحاديث غير صحيحة، ومطاعن في الصحابة، وغمزًا لجانبهم؛ مما حملني على المبادَرَة بكتابة هذه البحوث، وتفنيد الأخطاء الواردة في الكتاب، وكنت أعتزم نشر ذلك في إحدى الصحف أو المجلات في مقال أو مقالين، ولكن الحديث تشعَّب والمناقشات امتدَّت حتى تجمَّع منها كثير، فرأيت من الأجدى نشره في هذا الكتاب الذي آمُل أن أكون بعملي فيه قد أسهمتُ في الدفاع عن صفوة البشر بعد الأنبياء، الذين لهم من السبْق والفضل وصحبة رسول الله ﷺ ما ملأ الدنيا أريجًا يتضوَّع وذكرًا عاطرًا – رضي الله عنهم أجمعين.

وإن مما يدعو للأسف ألا يكون في مؤسسة أعلام العرب مَن يحقق هذه الكتب قبل طبعها؛ حتى لا تعجَّ بمثل هذه الأخطاء المضحكة المبكية، وتقدم للناس تاريخًا مشوهًا قد يسرُّ المستشرقين والمبشرين؛ لأنه يتَّفق وأهواءهم ومطاعنهم الباطلة، وفي نفس الوقت يُحزن المسلمين الفاهمين لتاريخهم والحريصين على تراثهم من التحريف والتشويه، وعلى الله الاعتماد، ومنه نسأل التوفيق والهداية.

المؤلف/ زيد بن عبدالعزيز بن فياض

(سنة ١٣٨٧هـ)

* * *

[1] تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

معاوية أميرًا للشام

عندما دخل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أرض الشام، استقبله أميرها معاوية بن أبي سفيان في موكب، فغضب عمر بن الخطاب وأعرض عنه ومشى في طريقه وهو لا يكلمه – وكان معه عبدالرحمن بن عوف – ثم قال عمر لمعاوية – رضي الله عنهما –: يا معاوية، إنه بلغني أنك تغدو في موكب وتروح في مثله، وتصبح وذوي الحاجات ببابك؟ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، إنَّا بأرض، بها العدو قريب، فأردت أن يروا أن للإسلام عزًّا، فقال عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب، أو خدعة رجل ربيب، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مُرْني بما شئت أَصِر إليه، فقال أمير المؤمنين عمر: ويحك، ما ناظرتُك في أمر إلا وتركتني لا أدري بِمَ آمرك، وبِمَ أنهاك؟! ولما فارق عمر ومعه عبدالرحمن بن عوف معاوية، قال عبدالرحمن بن عوف لعمر بن الخطاب: ما أحسنَ ما صدر عن الفتى! فأجاب عمر: لأجل ذلك جشمناه[٢] ما جشمناه.

* * *

معاوية في عهد الرسول ﷺ

أخذ معاوية يستسقي من النبع الصافي، وينهل من نبي الله نورًا وعلمًا، فاستوثقه رسول الله على القرآن الكريم وجعله من كَتَبَة الوحي، وكان يدعو له الرسول ﷺ فيقول: ((اللهم اجعله هاديًا مهديًّا))؛ رواه الترمذي[٣].

* * *

٢ جَشِمَ الأمر، كسمِعَ، جَشْمًا وجَشَامةً: تكلَّفه على مشقة "القاموس المحيط".

٣ أخرجه الترمذي (٣٨٤٢) وقال: "حسن غريب".

في عهد الخلافة الراشدة

وغَدَا معاوية جنديًّا من جنود الإسلام ينافح عن دين الله، ويرفع مع الذين يرفعون راية الله؛ لتظلَّ خفَّاقة مرفوعة، وفي عهد عمر بن الخطاب كان مع الجنود الذين أرسلهم ليطهِّروا الشام من الروم تحت إمرة أخيه يزيد بن أبي سفيان، وجعل عمر يزيد على الشام، فلمَّا توفَّاه الله جعل مكانه أخاه معاوية؛ لما بلغه من دهائه وحسن خلقه، ورُوِي أنه ذكر أمام عمر بن الخطاب دهاء كسرى وقيصر وحُسْن تدبيرهما، فقال: أتذكرون كسرى وقيصر عند معاوية بالشام؟!

وفي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ أَذِن له عثمان بركوب البحر وغزو قبرص، وكان هذا أوَّل جيش إسلامي يركب البحر، وتحقَّقت نبوءة الرسول ﷺ إذ قال: ((أوَّل جيش من أمتي يركبون البحر قد وجبت لهم الجنة))[٤]، وكان بمشيئة الله هذا الجيش تحت إمرة معاوية، وفي عهد الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب ﷺ اختلف معاوية معه؛ حيث طالب بدم عثمان ﷺ والتقى الجيشان في معركة (صفين) وهي فتنة قال فيها الشافعي: عصم الله منها دماءنا، فلنعصم ألسنتنا.

ومما ذُكِر أن علي بن أبي طالب كان محقًّا في الأمر وأخطأ معاوية؛ لقول الرسول ﷺ: ((تقتتل طائفتان من أمَّتي، ثم تخرج خارجة تقتلها أولى الطائفتين إلى الحق))[٥]، فخرج الخوارج وتغلَّب جيش علي بن أبي طالب ﷺ وحدثت فتنةٌ بعد ذلك قُتِل على إثْرها الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ وبايع الحسنُ بن علي - رضي الله عنهما - معاويةَ بالخلافة، وسُمِّي ذلك العام بعام الجماعة؛ حيث اجتمعت جماعة المسلمين تحت إمرة أمير واحد، وهو معاوية بن أبي سفيان.

ولنبدأ الآن بذكر تُرَّهات الأبياري وتحامله وتجنِّيه على معاوية - رضي الله عنه.

* * *

٤ أخرجه البخاري (٢٩٢٤) من حديث أم حرام بنت ملحان - رضي الله عنها.

٥ أخرجه مسلم (١٠٦٤) (١٤٩) (١٥٠) (١٥١) (١٥٢) (١٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري ☐ بنحوه ومعناه.

حكاية خرافية

فهو يقول في صفحة (٩) أورد المؤلف حكاية خرافية عن تطيُّر وقع بسبب ولادة هاشم وعبدشمس قال: "لقد ولد هاشم وعبدشمس في بطنٍ، ولدتهما لعبدمناف زوجه عاتكة موصولة عَقب أحدِهما بعَقِب الآخر، وما أن فصَل بين العقبين طبيب الحي بمبضعه حتى كان دم، وما أن كان دم حتى تطيَّر بذلك الأبَوَان؛ فقد أنذرهما العرَّافون والكُهَّان بما سوف يكون بين ابنيهما وأعقابهما من دماء تُرَاق".

وكان جديرٌ بالمؤلف أن يذكرها بصيغة تُعْطِي التشكُّك في صحتها، كـ(يُروى، أو قيل)، أمَّا أن يوردها بصيغة الجزم المؤكَّد بلام التوكيد وحرف التحقيق، فذلك ما لا يناسب.

وقد أشار إلى هذه الحكاية ابن الأثير في "تاريخه"، وأوردها بصيغة (وقيل)، التي هي للتمريض.

قال ابن الأثير في "الكامل" ج ٢ ص ١٠: "وقيل: إن عبدشمس وهاشمًا توءمان، وإن أحدهما وُلِد قبل الآخر، وإصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه، فنحِّيت فسال الدم فقيل: يكون بينهما دم"، وهذه الحكاية هي بالخرافات أشبه منها بالوقائع الصحيحة؛ ولذا فمن المستغرب أن يذكرها المؤلف وكأنها شيء صحيح.

* * *

تدبير الله

يقول ص ١٠- ١١: "ويسوق أبرهة جيوشه لهدم الكعبة ويخرج إليه عبدالمطلب يكلِّمه فيما جاء له، ويتلبَّث الناس فيرَوْن جيوش أبرهة قد حصدها الموت بتدبير السماء...".

وهذا التعبير الذي استعمله المؤلف لا يتمشَّى مع ما يؤمن به المسلمون من أن ذلك كان بتدبير الله، وليس بتدبير السماء؛ لأن السماء مخلوقة مُدَبَّرة - بفتح الباء المشددة - وليس لها تدبير.

وقد أخبر الله عن إهلاكه أبرهة ومَن جاء معه لهدم الكعبة بقوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١- ٥].

وفي قول المؤلف: "ويخرج إليه عبدالمطلب يكلِّمه فيما جاء له" ما يوهم أن عبدالمطلب كلَّم أبرهة في سبب قدومه، وما الداعي لأن يحارب قريشًا؟ وكيف يجرؤ على هدم الكعبة - مثلاً؟ مع أن القصة التي رواها المؤرخون تتلخَّص في أن عبدالمطلب لما حضر عند أبرهة كرمه أبرهة وبجَّله، وتكلَّم عبدالمطلب فطلب من أبرهة أن يسمح بالإفراج عن إبله المائتين، وردَّ عليه أبرهة أنه كان قد ارتفع في عينيه قبل أن يتكلَّم، ولكنه غيَّر رأيه فيه بعد أن اهتمَّ بمصلحته الشخصية دون أن يعبأ بالكعبة والدين، وأجابه عبدالمطلب: إن للبيت ربًّا يحميه، وقد أصبحت كلمة عبدالمطلب هذه مثلاً يضرب.

* * *

زعمه في سبب الخلاف الأموي الهاشمي

يقول المؤلف صفحة ١٠: "وكان يسيرًا ألاَّ يحقد عبدشمس على أخيه هاشم غناه، وكان يسيرًا على عبدشمس ألاَّ يحقد على أخيه هاشم جاهه، فهذا وذاك كسب إن لم ينله عبدشمس حينًا فقد يناله حينًا آخر، ولكن غير يسير على عبدشمس ألاَّ يحقد على أخيه هاشم ما آثره به قومه؛ فأفردوه بالرياسة دونه وجعلوه عليه وعليهم ملكًا.

ويموت هاشم فلا تردُّ الأمور إلى أخيه عبدشمس؛ بل يتلقَّفها عبدالمطلب بن هاشم، ويموت عبدشمس ويخلفه ابنه أميَّة ليرى الجاه الذي حُرِمه أبوه، فنغَّص عليه حياته في يد عبدالمطلب بن هاشم فينغص عليه هو الآخر حياته، ويلي عبدالمطلب أمرَ قريش فلا يني جاهدًا في أن يضيف إلى الشرف الموروث شرفًا مكسوبًا؛ يطعم الطعام فيرتضيه الناس ويحبونه ويحفر الله زمزم بيديه، فيعلو صيته ويسوق أبرهة جيوشه لهدم الكعبة، ويخرج إليه عبدالمطلب يكلِّمه فيما جاء له، ويتلبَّث الناس فيرون جيوش أبرهة قد حصدها الموت بتدبير السماء فيعدُّون عبدالمطلب ميمونًا، ويزدادون له حبًّا وبه تعلقًا".

يقول المؤلف ص ٢٦٥: "وكما أخذ الأمويون الملك من الهاشميين، استردَّ الهاشميون الملك من الأمويين، وكما فعل الأمويون بالهاشميين من قتل وتشريد، فعل الهاشميون بالأمويين من قتل وتشريد. وهكذا امتدَّ الخلاف الجاهلي حقبتين من الزمن، كانت الحقبة الأولى تلك الأعوام التي كان فيها الملك للأمويين، وكانت الحقبة الثانية صدر تلك الأعوام التي كان فيها الملك للعباسيين".

ويقول في ص ٢٧٤- ٢٧٥: "ومعاوية على الرغم مما أُخِذ عليه كان الرجل الذي وصل ما بين تلك الحقبتين، فنقل هذا الخلاف الذي كان بين الأمويين والهاشميين، وحماه وزكَّاه وأنشأ به دولة الأمويين؛ مما حرَّك نفوس الهاشميين، فلم تسكن تلك النفوس حتى نالت هي الأخرى من الأمويين، وأزاحت دولتهم وأقامت دولة عباسية.

هذا التاريخ كلُّه أوجده معاوية بما فيه من خيرٍ وشر، فهو إن لم يُوجِد الدولة الأموية، فما كان وجود الدولة العباسية على هذه الصورة التي وُجِدت عليها ممكنًا".

وللمؤلف عبارات تحوم حول هذا الموضوع، وتبالغ في وصف الخلاف بين الأمويين والهاشميين، وتُرْجِع أشياء كثيرة إلى هذا الخلاف، وأحيانًا تكون العبارات غامضة كقوله: "وكما أخذ الأمويون الملك من الهاشميين، استردَّ الهاشميون المُلْك من الأمويين، وهكذا امتدَّ الخلاف الجاهلي حقبتين من الزمن، كانت الحقبة الأولى تلك الأعوام التي كان فيها المُلْك للأمويين، وكانت الحقبة الثانية صدْر تلك الأعوام التي كان فيها الملك للعباسيين".

ولا ندري ما قصد المؤلف من قوله: "أخذ الأمويون الملك من الهاشميين"، وإن كُنَّا نعرف أن النزاع كان بين علي بن أبي طالب ﷺ وابنه الحسن من جهة، وبين معاوية ﷺ من جهة أخرى، وعلي ﷺ خليفة راشد، ومُدَّة خلافة الحسن القصيرة (ستة أشهر) امتداد الخلافة الراشدة.

فإذًا؛ كيف يعبّر عن ذلك بأن الأمويين أخذوا الملك من الهاشميين؟!

إن في هذا التعبير إساءة إلى الخليفة الراشد رابع الخلفاء الراشدين، وإلى ابنه الحسن – رضي الله عنهما – وقد دلَّ حديث سفينة ﷺ أن مُدَّة الخلافة بعد النبي ﷺ ثلاثون سنة ثم تكون مُلْكًا.

وبتنازل الحسن رغبةً في حقن دماء المسلمين؛ كانت قد انقضت ثلاثون سنة، ووقع ما أخبر به الرسول ﷺ في قوله عن السبط: ((إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين))[٦]، وتحقَّقت المعجزة، وصدق رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى.

وإذا كان يقصد أن هاشمًا وعبدالمطلب كانا ملِكَين – كما قد صرَّح به فيما سلف – فذلك غير صحيح، فهما لم يكونا كذلك، وكل ما هنالك أن لهما رياسة وزعامة، وفرق بين الأمرين، لقد عبر المؤلف تعبيرًا غريبًا؛ إذ زعم أن قوم هاشم بن عبدمناف جعلوه ملكًا عليهم وعلى عبدشمس، ولا أدري على أيِّ شيءٍ استند المؤلف في هذا الكلام، ولكن الذي نعرفه أن الرسول ﷺ لم يكن من أبناء الملوك، وإن كان حسيبًا في قومه، عالي المنزلة، موصوفًا بالأمين.

وفي قصة هرقل مع أبي سفيان وسؤاله: هل في آبائه من مَلِك؟ قال أبو سفيان: لا، قال: هكذا الأنبياء، وقال هرقل معللاً ذلك: إنه لو كان من آبائه ملك لقال: إن الرسول شخص يطالب بملك آبائه.

وفي الصحيحين و"مسند الإمام أحمد"، و"سنن أبي داود" والترمذي، عن عبدالله بن عباس: أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث كتابه مع دحية الكلبي، وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى؛ ليدفعه إلى قيصر فدفعه عظيم بصرى، وكان قيصر لما كشف الله – عز وجل – عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء على الزرابي تُبْسَط له، فقال عبدالله بن عباس: فلما جاء قيصر كتابُ رسول الله ﷺ قال حين قرأه: التمسوا لي من قومه مَن أسأله عن رسول الله ﷺ قال ابن عباس: فأخبرني أبو سفيان بن حرب: أنه كان بالشام في رجال من قريش قَدِموا تجارًا، وذلك في المدَّة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين كُفَّار قريش، قال أبو سفيان: فأتاني رسول قيصر فانطلق بي وبأصحابي، حتى قدمنا إيلياء فأدخلنا عليه، فإذا هو جالس في مجلس مُلْكه عليه التاج، وإذا حوله عُظَماء الروم، فقال لترجمانه: سَلْهم: أيُّهم أقرب نسبًا بهذا

---

٦ أخرجه البخاري (٢٧٠٤) و(٣٦٢٩) و(٣٧٤٦) و(٧١٠٩) من حديث أبي بكرة – رضي الله عنه.

الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: أنا أقربهم إليه نسبًا، قال: ما قرابتك منه؟ قال: قلت: هو ابن عمي، قال أبو سفيان: وليس في الركب يومئذٍ رجل من بني عبدمناف غيري، قال: فقال قيصر: أَدنوه مني، ثم أمر بأصحابي فجعلوا خلف ظهري عند كتفي، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذب فكذِّبُوه، قال أبو سفيان: فوالله لولا الاستحياء يومئذ أن يأثر أصحابي عني الكذب لكذبته حين سألني؛ ولكني استحييت أن يأثروا عني الكذب فصدقته عنه، ثم قال لترجمانه: قل له: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحدٌ قطُّ قبله؟ قال: قلت: لا، قال: فهل كنتم تتَّهمونه في الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من مَلِك؟ قال: قلت: لا... إلى أن قال: وسألتك: هل كان من آبائه من مَلِك، فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت: رجل يطلب مُلْك آبائه.

وقد أورد المؤلف ص ٥٤- ٥٦ هذه القصة مختصرة، وهي تُناقش ما يوهمه كلامه هنا.

وقد وقع المؤلف في خطأ آخر في قوله: "ويموت هاشم فلا تردُّ الأمور إلى أخيه عبد شمس، بل يتلقَّفها عبدالمطلب بن هاشم"، والصواب أن الذي تولى ما كان يتولاه هاشم هو المطلب، وهو أصغر إخوته سنًّا، وقد كان عبدالمطلب صغيرًا آنذاك.

قال ابن هشام في "السيرة" ج ١ ص ١٣٥- ١٤٢: "قال ابن إسحاق: فوَلِي الرفادة والسقاية هاشم بن عبدمناف؛ وذلك أن عبدشمس كان رجلاً سفارًا؛ قلَّما يقيم بمكة، وكان مُقلاًّ ذا ولد، وكان هاشم موسرًا فكان - فيما يزعمون - إذا حضر الحاجُّ قام في قريش فقال: يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوَّار الله وحجَّاج بيته وهم ضيف الله، وأحق الضيف بالإكرام ضيفه، فاجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعامًا أيامهم هذه التي لا بُدَّ لهم من الإقامة بها، فإنه والله لو كان مالي يسع لذلك ما كلفتكموه، فيخرجون لذلك خرجًا من أموالهم، كل امرئ بقدر ما عنده فيصنع به للحجاج طعامًا حتى يصدروا منها، وكان هاشم - فيما يزعمون - أوَّل مَن سنَّ الرحلتين لقريش: رحلتي الشتاء والصيف، وأوَّل مَن أطعم الثريد بمكة، وإنما كان اسمه عمرًا، فما سمي هاشمًا إلا بهشْمه الخبز بمكة لقومه، فقال شاعر من قريش أو من بعض العرب:

عَمْرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ = قَوْمٍ بِمَكَّةَ مُسْنِتِينَ عِجَافِ

سُنَّتْ إِلَيْهِ الرِّحْلَتَانِ كِلاَهُمَا = سَفَرُ الشِّتَاءِ وَرِحْلَةُ الأَصْيَافِ

قال ابن إسحاق: ثم هلَك هاشم بن عبدمناف بغزة من أرض الشام تاجرًا، فولي السقاية والرفادة من بعده المطلب بن عبدمناف، وكان أصغر من عبدشمس وهاشم، وكان ذا شرف في قومه وفضل، وكانت قريش إنما تسميه الفيض لسماحته وفضله، ثم هلَك المطلب بردمان من أرض اليمن.

ثم ولي عبدالمطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب فأقامها للناس، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم، وشرُف في قومه شرفًا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم".

وقال ابن خلدون في "تاريخه" ج ٢ ص ٦٩٥- ٦٩٦: "ثم قام بأمر بني عبدمناف ليساره وقراره بمكة وتقلُّب أخيه عبدشمس في التجارة إلى الشام، فأحسن هاشم ما شاء في إطعام الحاج وإكرام وفدهم، ويقال: إنه أوَّل مَن أطعم الثريد الذي كان يُطْعَم، فهو ثريد قريش الذي قال فيه النبي ﷺ: ((فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام))٧.

ويقال: إن هاشم بن عبدالمطلب أوَّل مَن سنَّ الرحلتين في الشتاء والصيف للعرب، ذكره ابن إسحاق، وهو غير صحيح؛ لأن الرحلتين من عوائد العرب في كل جيل لمراعي إبلهم ومصالحها؛ لأن معاشهم فيها"، ثم ذكر نحوًا مما ذكره ابن هشام.

قال ابن الأثير في "الكامل" ج ٢ ص ١٠: "وولي هاشم بعد أبيه عبدمناف ما كان إليه من السقاية والرفادة، فحسده أمية بن عبدشمس على رياسته وإطعامه، فتكلَّف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشمتت به ناسٌ من قريش فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسِنِّه وقدره، فلم تدعه قريش حتى نافره على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشر سنين، فرضي أمية وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، وهو جد عمرو بن الحمق ومنزله بعسفان، وكان مع أمية همهمة بن عبدالعزى الفهري، وكانت ابنته عند أمية فقال الكاهن: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلَم مسافر، من منجد وغائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر أول منه وآخر، وأبو همهمة بذلك خابر، فقضى لهاشم بالغلبة، وأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها، وغاب أمية عن مكة بالشام عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية، وكان يقال لهاشم والمطلب: البدران؛ لجمالهما، ومات هاشم بغزة وله عشرون سنة، وقيل: خمس وعشرون سنة، وهو أوَّل مَن مات من بني عبدمناف، ثم مات عبدشمس بمكة

٧ أخرجه البخاري (٣٧٧٠)، ومسلم (٢٤٤٦) من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه.

بأجياد، ثم مات نوفل بسلمان من طريق العراق، ثم مات عبدالمطلب بردمان من أرض اليمن، وكانت الرفادة والسقاية بعد هاشم إلى أخيه المطلب؛ لصغر ابنه عبدالمطلب بن هاشم".

وقال ابن الأثير في "الكامل" ج ٢ ص ٩: "وكان لعبدالمطلب جار يهودي يقال له: أُذَيْنَة، يتَّجر وله مال كثير، فغاظ ذلك حرب بن أمية، وكان يذم عبدالمطلب فأغرى به فتيانًا من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله، فقتله عامر بن عبدمناف بن عبدالدار، وصخر بن عمرو بن كعب التيمي جد أبي بكر ﷺ فلم يعرف عبدالمطلب قاتله، فلم يزل يبحث حتى عرفهما وإذا هما قد استجارَا بحرب بن أمية، فأتى حربًا ولامه وطلبهما منه فأخفاهما، فتغالَظَا في القول حتى تنافرَا إلى النجاشي ملك الحبشة، فلم يدخل بينهما، فجعلا بينها نفيل بن عبدالعزى العدوي جد عمر بن الخطاب، فقال لحرب: يا أبا عمرو، أتنافِر رجلاً هو أطول منك قامة، وأوسم منك وسامة، وأطول منك مددًا، وإني لأقول هذا وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جلد المريرة لحبل العشرة، ولكنك نافرت منفرًا، فغضب حرب وقال: من انتكاس الزمان أن جُعِلْتَ حكمًا، فترك عبدالمطلب مساومة حرب ونادمه عبدالله بن جُدعان التيمي، وأخذ منه حرب مائة ناقة فدفعها إلى ابن عم اليهودي، وارتجع ماله إلا شيئًا هلك، فغرمه من ماله وهو أوَّل مَن تحنَّث بحراء؛ فكان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين جميع الشهر، وتُوُفِّي وله مائة وعشرون سنة وكان قد عمي، وقيل غير ذلك.

وقال الألوسي في كتاب "بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب" ج ١ ص ٣٠٧: (منافرة هاشم بن عبدمناف وأمية بن عبدشمس): كان هاشم بن عبدمناف أحد أجداد النبي ﷺ قد تولى أمر مكة بعد أبيه، وساد قومه بما كان عليه من محاسن الأخلاق وجليل الشِّيَم، وكمال الشجاعة، ووافر الكرم، وغاية الفصاحة، وغير ذلك من الصفات الفاضلة التي لم يطاوله بها أحد، وهو أوَّل مَن سنَّ الرحلتين لقريش: رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام، وهو الذي كان يقوم بأمر الناس في السنين المقحِطة ويطعمهم أحسن الطعام؛ ولذلك لهجته ألسنة العرب على اختلافهم في القبائل بالثناء عليه، فعند ذلك حسده ابن أخيه أمية بن عبدشمس بن عبدمناف؛ حيث عجز عن محاكاته في صنيعه ومباراته في شِيَمِه، حتى شمت به أناس كثيرون من قريش، فقال فيه وهب بن عبد بن قصي:

تَحَمَّلَ هَاشِمٌ مَا ضَاقَ عَنْهُ = وَأَعْيَا أَنْ يَقُومَ بِهِ ابْنُ بِيضِ
أَتَاهُمْ بِالْغَرَائِرِ مُثْقَلاَتٍ = مِنَ ارْضِ الشَّامِ بِالْبُرِّ النَّفِيضِ
فَأَوْسَعَ أَهْلَ مَكَّةَ مِنْ هَشِيمٍ = وَشَابَ الْخُبْزَ بِاللَّحْمِ الغَرِيضِ[٨]

ونشبت العداوة بين أمية وهاشم، وأراد منافرته، فكره هاشم ذلك لنسبه وقدْره، فلم تدعه قريش حتى نافره إلى الكاهن الخزاعي في خمسين ناقة سود الحِدَق ينحرها ببطن مكة، والجلاء من مكة عشر سنين، فخرج كلٌّ منهما في نفر فنزلوا على الكاهن، فقال قبل أن يخبروه خبرهم: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعَلَم مسافر، من منجد وغائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر، فنفر الخزاعي هاشمًا وقال لأمية: تنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأحسن منك وسامة، وأقل منك لامة، وأكثر منك ولدًا، وأجزل منك صفدًا؟ فقال أمية: من انتكاث الزمان أن جعلناك حكمًا، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها مَن حضره، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية.

وسيأتي لهاشم ذكر في مبحث حُكَّام العرب، وما قال عند تنافس قريش وخزاعة عنده – إن شاء الله تعالى".

وقال الألوسي أيضًا ج ١ ص ٣٢١ من كتاب "بلوغ الأرب": "هاشم بن عبدمناف القرشي هو من أكابر رجال قريش وساداتهم وحُكَّامهم، وملَك بعد أبيه الرفادة والسقاية، واستقرَّت له الرياسة، وصارت قريش له تابعة، تنقاد لأمره وتعمل برأيه، وكان يعمل الطعام للحُجَّاج يأكل منه مَن لم يكن له سعة ولا زاد، ويقال لذلك: الرفادة، وأخباره كثيرة مشحونة منها كتب السير.

ويقول الأبياري ص ١١: "ويروق لي في أن أتركك لأبي جهل بن هاشم يصوِّر لك ذلك بلسانه؛ لتعرف كيف خالف العرب على محمد – ومنهم الأمويون – وأنهم لم يتنكَّروا لدين وإنما تنكَّروا لسيادة خافوا أن يعلوهم بها الهاشميون".

فأولاً: في هذه الجملة تراكيب ركيكة كقوله: "خالف العرب على محمد"؛ لأن خالف تتعدى بنفسها، وليس بواسطة حرف "على".

وثانيًا: في قوله لأبي جهل بن هاشم غلط؛ لأنه أبو جهل بن هشام، وليس هاشمًا.

---

٨ "تاريخ الطبري": (١٨٠/٢).

وثالثًا: زعمه أن العرب إنما تنكَّروا للإسلام خوفًا أن يعلو به الهاشميون لا تنكرًا للدين، فيه تعميم غير صحيح.

فالصواب أن من العرب مَن أنكره؛ لأنه ظن ما هو عليه من عبادة الأوثان وتقليد الآباء في خُطاهم هو الحق، وهؤلاء هم الأغلبية، ومنهم مَن أنكره لأنه يخالف هواه ورغباته أو يقلل من سيادته ورئاسته، أو حسدًا وهوًى؛ ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزّخرُف: ٣١]، ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]، آيات صورة من التعنُّت والجهل والحسد، تتجلَّى في هذه الأحوال للمشركين، ومن ذلك قول أبي جهل الذي أشار إليه المؤلف ص ١٢: "حتى إذا ما تحاذَينا جثونا على الرُّكَب وكنا كفرسَي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء!".

فهذا القول من أبي جهل يمثِّل حسده لبني هاشم، ومن الحسد: جحود أمية بن أبي الصلت الثقفي لنبوة الرسول مع علمه بذلك؛ لأنه كان يتطلَّع إلى النبوة ويرشح نفسه لها، فلمَّا لم يكن هو النبي جحد استكبارًا وحسدًا، ومن الحسد جحد اليهود لنبوة الرسول؛ لأنه لم يكن من اليهود مع يقينهم أنه رسول الله حقًّا، وكانوا يستفتحون على المشركين بأن نبيًّا قد أظلَّ زمانه وكانوا يظنُّونه من اليهود، فلما لم يكن منهم جحدوا بغيًا وحسدًا، وقالوا للمشركين: أنتم أهدى سبيلاً من محمد.

ومَن تأمَّل القرآن وسيرة الرسول ﷺ وتاريخ العرب، علم ذلك، فإن أغلبية العرب كذَّبوا الرسول في بدء أمره وحاربوه وآذوه، مع أن أكثريتهم ليست لهم زعامة يخشون عليها، والزعامة إنما هي لقلة منهم.

كما أن معظمهم ليس ثريًّا حتى يتخوف على ماله أن يذهب؛ ولكن هؤلاء كانوا يعتقدون أن ما هم عليه هو الحق مع أنه ضلال وجهل.

قال – تعالى –: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ * أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٤– ٨]، وقال – تعالى –: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٠].

ولما ذهب كفار قريش إلى أبي طالب يشكون رسول الله ﷺ كانوا يقولون: إنه قد عاب آلهتنا وشتم آباءنا وفرَّق جماعتنا، ويعرضون المغريات من أجل أن يكفَّ الرسول ﷺ عن دعوته، ويبدون استعدادهم لأن يملِّكوه عليهم وأن يجمعوا له من المال حتى يكون أغناهم، وأن يزوِّجوه أجمل بناتهم.

إنهم هنا قد حملهم الجهل، وتصوُّرهم أن ما هم عليه من الشرك والوثنية وإنكار المعاد، وأشباه ذلك من مصائب الجاهلية هو الحق، فهم يدافعون عن معتقدهم الذي خالوه صوابًا، ويصور ذلك قصة سُهَيْل بن عمرو عندما كتب علي ﷺ كتاب الصلح بأمر الرسول ﷺ عام الحديبية لمدَّة عشر سنين بين المسلمين والمشركين، وكتب: "هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله وسُهَيل بن عمرو"، اعترض سُهَيل على هذه الفقرة وقال: اكتب محمد بن عبدالله؛ لأنا لو نعلم أنك رسول الله حقًّا لاتبعناك ولم نقاتلك، وعمرو بن العاص الداهية عندما سُئِل عن سبب تأخُّر إسلامه، قال ما معناه: إنه تقليد الآباء؛ حيث كان يظن أن لهم دراية توجب جحدهم نبوة الرسول، فلمَّا استبان له الحق أسلم وأناب، وقصة إسلام عمر، وقد جاء ليفتك بالرسول، فلما علم بإسلام أخته وزوجها دخل عليهما ليعاقبهما، ثم تبين له الحق بعدما سمع القرآن فأسرع إلى الرسول في دار الأرقم لينطق أمامه بالشهادتين، وليكون من أنصار الإسلام.

وبالنسبة لذوي الرياسات والتَّرَف الذين يحاذرون على ما لهم من جاه ومال، ويقاومون دعوة الرسل، فقد أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤- ٣٥].

وأخبر عن فرعون وقومه وتكذيبهم لموسى بقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النَّمل: ١٤]، ومن هذا القبيل عناد أبي جهل مع استبانة الحق له.

ونكرِّر ما قلناه من أن معاداة قريش للرسول كانت في الدرجة الأولى من أجل العقيدة، وما كانوا عليه من عبادة الأوثان التي كانوا يعتقدونها حقًّا، وفي مواقفهم ومحاوراتهم مع الرسول وحرصهم على أن يَكُفَّ عن عيب آلهتهم ما يوضِّح ذلك، وسنورد شيئًا من هذا على سبيل المثال:

قال ابن إسحاق[٩]: "فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه، ولم يردُّوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلمَّا فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته؛ إلا مَن عصم الله - تعالى - منهم بالإسلام، وهم قليل مستخْفُون، وحدب على رسول الله ﷺ عمُّه أبو طالب ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله ﷺ

٩ "سيرة ابن هشام": جـ ١ ص ٢٦٤.

على أمر الله مظهرًا لأمره لا يردُّه عنه شيء، فلمَّا رأتْ قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأَوْا أن عمَّه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمْه لهم – مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وضلَّل آباءنا، وإمَّا أن تكفَّه عنَّا وإمَّا أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقًا وردَّهم ردًّا جميلاً، فانصرفوا عنه.

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه، ثم شَري الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها، فتذامروا فيه وحضَّ بعضهم بعضًا عليه، ثم إنهم مشَوا إلى أبي طالب مرَّةً أخرى فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك نسبًا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنَّا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتْم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تَكُفَّه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، أو كما قالوا له، ثم انصرفوا عنه، فعظُم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يَطِبْ نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ ولا خذلانه، قال ابن إسحاق: وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس: أنه حدث أن قريشًا حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا للذي كانوا قالوا له، فأبقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق، قال: فظنَّ رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسْلِمه، وأنه قد ضَعُف عن نصرته والقيام معه، قال: فقال رسول الله ﷺ: ((يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه – ما تركته))، قال: ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام، فلمَّا ولَّى ناداه أبو طالب فقال: أقبِل يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا[10].

وقال ابن إسحاق أيضًا[11]: "ثم إن قريشًا اشتدَّ أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ ومَن أسلم معه منهم، فأغروا برسول الله ﷺ سُفهاءهم فكذَّبوه وآذوه ورموه بالشِّعر والسحر

---

١٠ إسناده معضل، يعقوب بن عتبة من أتباع التابعين، وفي الباب عن عقيل بن أبي طالب أخرجه أبو يعلى في "مسنده" (٦٨٠٤)، والطبراني في "الكبير" (١٧/١٩١- ١٩٢)، وفي "الأوسط" (٨٥٥٣) وفيه: ((والله ما أنا بأقدر على أن أدع ما بعثت به من أن يشتعل أحدكم هذه الشمس شعلة من نار))، واللفظ للأوسط وقال الهيثمي في "المجمع" (٦/٩): "ورجال أبي يعلى رجال الصحيح"، وقال الحافظ في "المطالب العالية" (٤/١٩٢): "هذا إسناد صحيح".

١١ "سيرة ابن هشام": ج ١ ص ٢٨٩.

والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مُظْهِر لأمر الله لا يستخفي به، مُبادِلُهم بما يكرهون؛ من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إيَّاهم على كفرهم.

وهذا عتبة بن ربيعة يعرض على الرسول ﷺ مطالب قريش فيقول١٢: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة١٣ في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به مَن مضى من آبائهم، فاسمع مِنِّي أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال رسول الله ﷺ: ((قل يا أبا الوليد))، قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا، سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا، ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوَى منه – أو كما قال له – حتى فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: ((أقد فرغت يا أبا الوليد؟))، قال: نعم، قال: ((فاسمع مني))، قال: أفعل، فقال: ((بِسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ١-٥]))، ثم مضى رسول الله فيها يقرؤها عليه، فلمَّا سمعها منه عتبة، أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذلك.

قال ابن إسحاق١٤: ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشًا ثِقَله، قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلمَا، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا، والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا.

قال ابن إسحاق: فحدثني العباس بن عبدالله بن معبد – ابن عباس – عن بعض أهله عن ابن عباس قال: مشوا إلى أبي طالب فكلموه وهم أشراف قومه: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، في رجال من أشرافهم فقالوا: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى وتخوَّفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين

---

١٢ "سيرة ابن هشام": ج ١ ص ٢٩٣.

١٣ وسط القوم من باب وعد، وسِطَة أيضًا بالكسر؛ أي: توسَّطهم، "مختار الصحاح".

١٤ "سيرة ابن هشام": ج ١ ص ٤١٧.

ابن أخيك، فادْعه فخذ له منا وخذ لنا منه؛ ليكفَّ عنا ونكفَّ عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب فجاءه، فقال: يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك، قال: فقال رسول الله ﷺ: ((نعم، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم))، قال: فقال أبو جهل: نعم، وأبيك وعشر كلمات، قال: ((تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه))، قال: فصفَّقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! إن أمرك لعجب! قال: ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه، قال: ثم تفرَّقوا، فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ: والله يا ابن أخي، ما رأيتك سألتهم شططًا، قال: فلمَّا قالها أبو طالب طمع رسول الله ﷺ في إسلامه، فجعل يقول له: أي عمِّ فأنت فقلها، أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة، قال: فلمَّا رأى حرص رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي، والله لولا مخافة السُّبَّة عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعًا من الموت — لقلتها؛ لا أقولها إلا لأسُرَّك بها.

قال: فلمَّا تقارَب من أبي طالب الموت قال: نظر العباس إليه يحرك شفتيه قال، فأصغى إليه بأذنه قال فقال: يا ابن أخي والله لقد قال الكلمة التي أمرته أن يقولها، قال: فقال رسول الله ﷺ: لم أسمع، قال: وأنزل الله – تعالى – في الرهط الذين كانوا اجتمعوا إليه وقال لهم ما قال، وردُّوا عليه ما ردُّوا: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١– ٢] إلى قوله: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ [ص: ٦– ٧]؛ يعنون: النصارى؛ لقولهم إن الله ثالث ثلاثة: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ﴾ [ص: ٧]، ثم هلك أبو طالب.

وظاهر هذه الرواية: أن أبا طالب مات مسلمًا، لكن ورد في "الصحيح": أن رسول الله دخل على أبي طالب عند موته وعنده أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية فقال: ((يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله))، فقال أبو جهل وابن أبي أمية: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟! فقال: أنا على ملة عبدالمطلب[١٥].

ويبالغ المؤلف في تضخيم الخلاف بين الأمويين والهاشميين، ويجعل خلاف أبي سفيان للرسول في أوَّل أمره وقبل أن يسلم أبو سفيان عام الفتح، منشؤه العداء بين الأمويين والهاشميين، وحتى بعد إسلام أبي سفيان، فالمؤلف يطعن عليه كثيرًا ويتَّهمه في دينه، ويصوِّره في مواضع كثيرة من الكتاب

---

١٥ أخرجه البخاري (١٣٦٠) و(٣٨٨٤) و(٤٦٧٥) و(٤٧٧٢) و(٦٦٨١)، ومسلم (٢٣) من حديث المسيب بن حزن – رضي الله عنه.

على أنه إنما أسلم طمعًا وخوفًا؛ لا رغبة في الدين أو حبًّا للإسلام أو قناعة بما جاء به الرسول من عند الله، وأنه استمر على ذلك نفاقًا.

* * *

وكأنه اطلع على قلب أبي سفيان وعلم ما تنطوي عليه نفسه، والحق أن أبا سفيان كان تأخر إسلامه لعِدَّة عوامل: عدم وضوح الحق له – بالرغم من جلاء الحق – ويمثل ذلك ما قاله عند إسلامه، وأنه قال عندما أُمِر بالنطق بالشهادة أن محمدًا رسول الله قال: إن في النفس من هذه شيء، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى كان حبه للرياسة والشرف قد حجبه عن التبصُّر في الحق، حتى كُتِب له أخيرًا أن ينطق بالشهادتين ويسلم ويجاهد.

ثم إن أبا سفيان وهو حديث عهد بإسلام قد بدرت منه كلمات تدل على أن الإيمان لم يتمكَّن من نفسه بعدُ، ولا ريب أن حديث العهد بالإسلام ليس مثل متقدِّم الإسلام، لا في معرفة الحق، ولا في رسوخ الإيمان.

ولذلك؛ كان السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار لهم من الفضل والثواب والدرجات العُلَى، ما ليس لِمَن بعدهم، حتى لو أنفق أحدهم مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه، ويبين هذا أكثر حديث أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حُدَثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: ((الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون))[١٦].

وقد سمع الرسول ﷺ مرَّة بعض أصحابه يحلف بغير الله فقال: ((مَن حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك))[١٧].

فهذا الذي جهله حُدَثاء عهد بكفر وكانوا جديدين على الإسلام، كان معلومًا للمتقدِّمين إسلامًا فلا يتورَّطون في مثل هذا الخطأ، بل هو من الأشياء المعروفة لديهم.

وأبو سفيان قيل عنه الكثير من الفضل، ورويت عنه كلمات لا تحسن من مثله، وهو ليس معصومًا من الخطأ، بل هو بشر، وحسبه صحبة الرسول فضلاً، والمهم ألا نذكر سيئاته ونهوِّل فيها

---

١٦ أخرجه أحمد (٥/٢١٨)، والترمذي (٢١٨٠) من حديث أبي واقد الليثي ، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح".

١٧ أخرجه أحمد (١/١٢٥)، والترمذي (١٥٣٥)، وأبو داود (٣٢٥١)، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن".

ونغفل حسناته ومآثره، كما يصنع المؤلف الذي حذا حذو بعض النصارى الذين يشوِّهون تاريخ المسلمين، ويسمون ذلك نقدًا.

ويقول ص ١٣: "ولقد صوَّرها لنا أبو سفيان صريحة في هذا الذي يرويه البلاذري، وهو ينقل عن المدائني: قال رسول الله ﷺ لعكرمة بن أبي جهل: ((أقاتلتني وأنت تعلم أني رسول الله؟))، قال: لا، وقال لأبي سفيان مثل ذلك فقال: قد علمت أنك صدوق لا تكذب، وإنما قاتلناك لأنك تعلم حالي في قريش، وجئت أمرًا لا يبقى معه شرف، فقاتلناك حمية وكراهة أن يذهب شرفي.

وهكذا أفصح أبو سفيان عمَّا في نفسه وعمَّا في نفس قومه، مما يحمله ويحملونه لهذا البيت الهاشمي، وما أُنسيه أبو سفيان وما أنسيه قومه حين أسلموا، ولكنه اختفى ليَظهر بعده شيء آخر".

ونحب أن نناقش المؤلف في نقطتين:

الأولى: في سند هذا الحديث ومقدار درجته جودة وضعفًا.

الثانية: في استنتاجه الذي يقسره قسرًا، ويحمل الكلام ما لا يحتمل.

وهو بذلك يوهم أن دعوة الرسول كانت امتدادًا للخلاف الأموي الهاشمي المبالَغ فيه، وكأن الرسول لم يأتِ لتبليغ رسالة الله؛ وإنما قام ليتحمل أعباء الملك الذي ورثه عن آبائه وأجداده! هكذا توهم عبارات المؤلف كما تقدَّم، وكما يقول ص ١٧٧: "ووراء المسألة شيء قديم هو هذا الخلاف الأوَّل، بين الأمويين والهاشميين، وقد دخل الهاشميون الدنيا والدين في أيديهم منهم رسول الله ﷺ وهم أهله وحفدته... إلخ".

ولو كان الرسول قد قام بما قام به من أجل إشادة ملك بني هاشم، لكان عمَّاه – أبو لهب وأبو طالب – من أول المؤمنين به، ولكن دعوة الرسول كانت تناقض عقائدهم الشركية وعاداتهم البدعية؛ لذلك كان أبو لهب يتبعه وهو يدعو الناس إلى الإسلام ويقول: لا تصدقوه فإنه صابئ، وعندما نزل قوله – تعالى –: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤]، ودعا عشيرته الأقربين، وقال: إني نذيركم بين يدي عذاب شديد، قال أبو لهب: تبًّا لك، ألهذا دعوتنا؟! فأنزل الله – تعالى –: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسَد: ١]١٨ إلى آخر السورة.

وهكذا استمرَّ أبو لهب في محاربة الدعوة الإسلامية حتى هلك جزعًا؛ لما علم بهزيمة المشركين يوم بدر.

---

١٨ أخرجه البخاري (٤٧٧٠) و(٤٧٧١) و(٤٩٧١)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما.

وعم الرسول الآخر أبو طالب كان مع معرفته بالحق ودفاعه عن الرسول وحمايته له، يمتنع عن الدخول في الإسلام، حتى هلك على الشرك والرسول يدعوه إلى الإسلام، فكان يردِّد أنه يموت على ملة عبدالمطلب، والذي حال بينه وبين الإسلام الخوفُ من ملامة المشركين له وعيبهم عليه مخالفة عبدالمطلب، فيقول في قصيدته:

وَدَعَوْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ نَاصِحِي = وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينَا

لَوْلاَ الْمَلاَمَةُ أَوْ حَذَارُ مَسَبَّةٍ = لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

ثم إن الرسول ﷺ لو كان يهدف إلى إقامة ملك لبني هاشم، لعيَّن خليفته من بني هاشم ولن يختلف عليه أحد، وقد دلَّت النصوص الكثيرة بالتلميح أو التصريح على أن الخليفة بعد الرسول هو أبو بكر التيمي القرشي، وبعده عمر بن الخطاب العدوي القرشي، وبعد عمر عثمان بن عفان العبشمي القرشي، وبعدهم علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، وهذا هو ما وقع فعلاً وهو الحق الذي لا ريب فيه؛ لأن الصحابة – وهم خيار الأمة الإسلامية – لن يجتمعوا على ضلالة.

* * *

طعنه في معاوية

يقول المؤلف ص ١٧٧: "ووراء المسألة شيء قديم هو هذا الخلاف الأوَّل بين الأمويين والهاشميين، وقد دخل الهاشميون الدنيا، والدين في أيديهم، منهم رسول الله ﷺ وهم أهله وحفدته، فكانوا أشد حفاظًا لهذا الدين الذي به عزَّ قومهم وعزَّ مع قومهم الناس قاطبةً، ودخل الأمويون الدنيا – أو أرادوا أن يدخلوها – وليس في أيديهم هذا الدين، لا نقول: إنهم كانوا غير مؤمنين ولا غير مسلمين، إنما نعني أن هذا الدين لم يكن صاحبه رسول الله ﷺ منهم الذي عزَّ به الهاشميون عليهم وسلبوهم الدنيا فيما ظنُّوا به، وكانوا يريدون أن يقضوا على الدنيا التي سلبوها باسم هذا الدين؛ من أجل ذلك دخلوا الدنيا أو أرادوا أن يدخلوا هذه الدنيا من طريق آخر، هو طريق الملك؛ لهذا جعل معاوية الأمر بينه وبين علي ترة ومطالبة بدم".

وفي ص ١٧٨: "فما من شك في أن عليًّا كان يقدِّر معاوية، ولكنه كان يجد عليه بهذا الذي ذاع عنه وشاع أيام عثمان، والذي كان يعلمه عنه من دَأَب وحرص على أن يهيئ للأمويين على حساب الهاشميين".

ويقول ص ١٧٧: "وهكذا رآها علي حرمة للإسلام تنتهك، ورآها دينًا يجب أن يدفع عنه، على حين رآها معاوية مُلكًا يريد أن لا يخرج من يده، ودنيا حرص على أن لا تفوته".

ومن غَمْز المؤلف لمعاوية وتنقُّصه له قوله في صفحة ٣: "ولكن معاوية دخل الحياة وعليه تَبِعات الماضي كله، فعاش بهذه التَبِعات ولم يستطع أن يمضي في حياته بعيدًا عن هذه التبعات".

ويقول صفحة ٤: "فلقد اجتمعت لمعاوية من ماضيه أسباب هيَّأ بها لحاضره وأمدَّ بها مستقبله، فلولا معاوية ما ذكر لهذا البيت الأموي ماضٍ ولا امتدَّ له مستقبل".

ويقول ص ١١: "ولكنَّا لا نستطيع أن ننكر أن ثمة نفوسًا لم تصفُ وبقيت على هذا الخلاف الجاهلي، وكانت هي التي امتدَّ بها هذا الخلاف إلى أن تؤسس به دولة حملت اسمهم (بني أمية) ولم تستطع أن تتجرَّد عنه".

ويقول ص ١٨: "وسوف نُشغَل بأبي سفيان طويلاً قبل أن نُشغَل بمعاوية ابنه؛ إذ تاريخ الابن صلة لتاريخ الأب، خطَّ الأب حروفه الأولى ومضى الابن يخطُّ سائره...".

"غير أنه قُدِّر لهذه الخصومة أن تتَّصل، وقُدِّر لها أن تتصور صورتها في أبي سفيان، وكان قبله عارضًا ليست له صورة متميزة، وقُدِّر لها بعد أبي سفيان أن تستحيل من صورة صامتة إلى صورة

حية في معاوية، وأن يكون لهذا البيت المغلوب إرْث البيت الغالب، وأن يتأخَّر بنو هاشم ليتقدم بنو عبدشمس.

ولقد عاش أبو سفيان لا ينسى تلك الخصومة التي ورثها غير مصوَّرة وأورثها ابنه مصوَّرة، عاش قبل أن يسلم ينافس الهاشميين على هذا الشرف الذي حازوه دون أهل بيته، وقد مرَّ بك ما كان على لسانه لرسول الله ﷺ وعاش بعد أن أسلم يسعى لهذا البيت يريد أن يكون له دون الهاشميين.

يحكي البلاذري: أن أبا سفيان كان على صدقة نجران حين قُبِض رسول الله ﷺ فقال: مَن قام بالأمر؟ قيل: أبو بكر، فقال أبو الفصيل: إني لأرى الأمر لا يُسكنه إلا الدم".

ويقول ص ٢٠: "ويحكون عنه أنهم سمعوه وهو يقول: مخرجه من عند عثمان وهو مكفوف: تلقَّفوها يا بني أمية تلقُّف الكرة، فما الأمر على ما تقولون.

كما حكوا عنه مثل ذلك حين قُبِض النبي ﷺ أرويه كما رواه البلاذري... فقد رووا له أنه قال: تلقفوها الآن تلقُّف الكرة لا من جنة ولا نار، وهو بهذا قد أذْكى في ابنه شيئًا لو لم يذكِه، لعاش معاوية لا يملك تلك الأسباب التي دخل بها، ولما وجد ما يختلف به على علي بن أبي طالب بعد مقتل عثمان، وما اتخذه ذريعة لأن يناهض به عليًّا.

أقول: لو لم يُلَقَّن معاوية الخصومة عن أبيه، لكان مع مقتل عثمان نفر من المسلمين يرى برأيهم، ولكنه أفاد من تلك الخصومة فتزعَّم بها حيَّه، وإذا الأمر بينه وبين علي ما بين هاشمي وعبشمي، وإذا الدولة له دون علي.

فأنت ترى أن أبا سفيان هو واسطة ذلك العقد الأموي، أخذ من السلف ليعطي الخلف، ووصل حبل الأبناء بحبل الآباء، ولولاه ما انبسطت الأسباب لمعاوية ليتزعَّم حزبه ثم ليؤسس دولة.

ثم إن حياة الأب قد اتَّصلت بحياة الابن فترة طويلة، أملى فيها الأب على الابن واستملى فيها الابن من الأب، لهذا لن يكون ما ذكر عن أبي سفيان خروجًا عن التاريخ لمعاوية بل هو بعضه".

ويقول ص ٥٣: "وكان في وجوده — أي: وجود أبي سفيان – امتداد للخلاف الهاشمي الأموي، وأراد هو أن لا يخسر الأمويون على يديه، وكان الهاشميون قد كسبوا ميدانًا للشرف يكتب لهم السبق على الأمويين، فأراد أبو سفيان أن يخلق للأمويين ميدانًا يكسب فيه الأمويون شرفًا أكبر".

ويقول ص ٥٦: "فأبو سفيان لم يُعَنِّ نفسه ليتعمق رسالة محمد؛ فهو لم يكن يعنيه الدين بل يعنيه الجاه والزعامة".

ويقول ص ٥٧- ٥٨: "وبهذا يصدق ظننا في أبي سفيان، وأنه كان رجلاً ينظر إلى الجاه ويحقد على محمد؛ لأنه نازعه هذا الجاه، وكان في هذا يمثل هذا النزاع القديم بين الحيين ويصله ولا يقطعه".

ويقول ص ٣٦: "لقد كانت هند - لا شك - أشد حفاظًا لكفرها من أبي سفيان، تعرفه دينًا يملأ عليها قلبها فعادت محمدًا من أجله، ويعرفه أبو سفيان وسيلة من وسائل السيادة على العرب، فخاف محمدًا على هذه السيادة ولم يخفْه على ذلك الدين، من أجل ذلك نزل عن دين ليأخذ دنيا".

* * *

خلط بين اسمين

ويقول ص ٣٦: "وعلى الرغم من أن أباها عتبة كان أقرب إلى الإسلام منه إلى الشرك، وكان رجل سلْم ودعة، ولكن هندًا كانت شيئًا وكان أبوها شيئًا آخر...".

ومن الطريف أن المؤلف لم يفرق بين أبي سفيان بن الحارث، وبين أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبدشمس والد معاوية.

فالأول: هاشمي قرشي.

والثاني: عبشمي قرشي.

الأول: يلتقي مع الرسول ﷺ في النسب عند عبدالمطلب.

والثاني: لا يلتقي مع الرسول نسبًا إلا في عبدمناف.

والأول: شاعر مشهور بالشعر وقد هجا الرسول كثيرًا قبل إسلامه، ثم أسلم عام الفتح هو وابنه.

والثاني: سيد قريش في كثير من المواقف بلا منازع، وليس شاعرًا.

وها أنا أورد كلام المؤلف، يقول صفحة ٨٩: "وخرج في تلك الليلة أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسَّسون الأخبار.

ويقال: إن أبا سفيان وعبدالله بن أمية لقيا رسول الله ﷺ بمكان ما فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، وكلمته أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمتك وصهرك.

وكما أبى رسول الله على أبي سفيان الدخول عليه من قبل، أبى هذا الدخول الآن، فقال لأم سلمة: ((لا حاجة لي بهما؛ أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال)).

وهكذا يكشف الرسول ﷺ عن السبب الذي من أجله لم يأذن لهذين بالدخول عليه، وهو سبب كما تراه عظيم.

وهل ينسى رسول الله ﷺ لأبي سفيان أنه كان يهجوه، وكان يبلغه ذلك على ألسنة الوافدين إليه من مكة، ولقد جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال له: إن أبا سفيان يهجوك، فقال رسول الله ﷺ: ((اللهم إنه هجاني، وإني لا أقول الشعر فاهجه عني))، وسمع ذلك عبدالله بن رواحة فقام إلى النبي وقال: يا رسول الله ائذن لي فيه، فقال له الرسول ﷺ: ((أنت القائل: ثبت الله ما أتاك من حسن))، قال ابن رواحة: نعم، فقال الرسول: ((وإياك فثبت الله))، ثم قام إليه كعب بن مالك فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه، فقال له الرسول: ((أنت القائل: هممت؟))، قال: نعم، فقال له الرسول: ((لست له))، ثم قام حسان بن ثابت فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه، فقال الرسول:

((أنت له))، اذهب إلى أبي بكر ليخبرك بمثالب القوم، ثم اهجهم وجبريل معك، فقال حسان في أبي سفيان أبياتًا منها:

أَلاَ أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنَّا = مُغَلْغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الخَفَاءُ

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ = وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الجَزَاءُ

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ = فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ[١٩]

ولما خرج الخبرُ إلى أبي سفيان وعبدالله بن أبي أمية بذلك، ومع أبي سفيان ابن له، قال وقد أفضى به اليأس إلى ما بعد اليأس، وليس شيء بعد اليأس إلا أن يستدبر المرء الحياة ويستقبل الطريق إلى الموت، وعلى هذا عزم أبو سفيان: أن يخرج من دنياه بعد أن ضاقت به دنياه، دنيا الرياسة والسيادة التي عاشها والتي سعى لأن يعيشها، ووجد سعيَه قد أخفق فالتفت إلى أم سلمة يقول: والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد بني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا.

وكأني برسول الله ﷺ قد عَلِم أن أبا سفيان سيبَرُّ بيمينه إن لم يأذن له، فأخذته به شفقةٌ ورحمة، وهل قلبٌ كان أكثر شفقة ورحمة على الناس من رسول الله ﷺ سواء منهم مَن والاه ومَن عاداه؟! فما كاد الرسول يسمع هذه الكلمة من أبي سفيان حتى أذن له ولصاحبه.

ودخل أبو سفيان ومعه عبدالله على رسول الله ﷺ فأسلما.

والذين يروون هذه القصة يروون لأبي سفيان شعرًا يعتذر به عما فرط منه، ويروون له من بين هذا الشعر بيتًا هو:

هَدَانِيَ هَادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَنَالَنِي = مَعَ اللهِ مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ

ويروون أن رسول الله ﷺ حين سمع هذا البيت ضرب في صدره — أعني: صدر أبي سفيان – وقال: أنت طردتني كل مطرد؟! وفي الحق أنها قاسية وكاذبة من أبي سفيان حين قالها، وكريمة نبيلة من رسول الله حين احتملها من أبي سفيان، ولم يفعل غير أن يكذبه فيها بهذا الأسلوب الإنكاري.

وهكذا كان أبو سفيان – كما قلت لك وكما مرَّ بك – حريصًا على أن يكون شيئًا، منه الأخذ وإليه الرد، لا تجري أمور الناس إلا به وعلى يديه.

والذين لا يروون تلك الرواية في إسلام أبي سفيان يروون رواية غيرها فيقولون:

لما نزل رسول الله ﷺ مرَّ الظهران، قال العباس بن عبدالمطلب: وا صباح قريش! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عَنْوة قبل أن يأتوه فيستأمنون، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، وخرج العباس

---

١٩ أخرجه مسلم (٢٤٩٠) بمعناه من حديث عائشة – رضي الله عنها – وأخرجه البخاري (٣٥٣١) مختصرًا.

على البيضاء – بغلة لرسول الله – في الطريق إلى مكة؛ لعله يجد بعض الحطابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبر أهلها بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة، ويوفر الله على العباس عناءه، فإذا هو يسمع أبا سفيان يحدِّث بديل بن ورقاء، وقد مرَّ بك أنهما خرجَا يتجسَّسان وأبو سفيان يقول لبديل: ما رأيت كالليلة نيرانًا قطُّ ولا عسكرًا، ويقول له بديل: هذه والله خزاعة قد حمشتها الحرب، ويقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها أو عسكرها.

ويقول العباس: فعرفت صوته – يعني: صوت أبي سفيان – فقلت: يا أبا حنظلة، وعرف أبو سفيان صوت العباس، فقال: العباس؟ فقال العباس: نعم، فقال أبو سفيان: ما لك فداك أبي وأمي؟ فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس، وا صباح قريش والله، كلمة للعباس هزَّت أركان أبي سفيان وهالته؛ فإذا هو يقول للعباس: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟".

وبذلك يتَّضح أن المؤلف خلَّط بين أبي سفيان بن الحارث وبين أبي سفيان صخر بن حرب، وظن أن ذلك اختلاف في الرواية لا في الأشخاص والأحداث.

وقد اشتهر أبو سفيان بن الحارث بالشعر، وعدُّوه من الشعراء الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ قبل إسلامه، ثم أسلم وحسن إسلامه، وصار من المقرَّبين إلى الرسول، وثبت يوم حنين، وقال فيه الرسول: "إني لأرجو أن يكون فيه خلف من حمزة"، أما أبو سفيان بن حرب فلم يُعْرَف بالشعر ولم يكن ممَّن يهجون الرسول، بل كان من زعماء قريش وذوي الشأن فيهم، وقد قاوم الإسلام، وهو قائد المشركين يوم أحد، وأسلم عام الفتح.

قال ابن عبدالبر في "الاستيعاب"[٢٠] في ترجمة حسان بن ثابت: "روينا من حديث عوف الأعرابي وجرير بن حازم عن محمد بن سيرين، ومن حديث السدي عن البراء، ومن حديث سماك بن حرب، وأبي إسحاق – دخل حديث بعضهم على بعض –: أن الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ من مشركي قريش: عبدالله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وعمرو بن العاص، وضرار بن الخطاب، فقال قائل لعلي بن أبي طالب: اهجُ عنا القوم الذين يهجوننا، فقال: إنْ أذِن لي النبي – صلى الله عليه وسلم – فعلت، فقالوا: يا رسول الله ائذن له، فقال رسول الله ﷺ: ((إن عليًّا ليس عنده ما يراد في ذلك منه – أو ليس في ذلك هناك))، ثم قال: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان: أنا لها وأخذ بطرف

---

٢٠ ج ١ ص ٣٣٤ المطبوع بهامش "الإصابة" بمطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٨هـ.

لسانه وقال: والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء، قال رسول الله ﷺ: ((كيف تهجوهم وأنا منهم؟ وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن عمي؟))، فقال: والله لأسلنَّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين، فقال له: ((ائت أبا بكر؛ فإنه أعلم بأنساب القوم منك)).

فكان يمضي إلى أبي بكر ليَقِفَه على أنسابهم، وكان يقول له: كُفَّ عن فلان وفلان واذكر فلانًا وفلانًا، فجعل حسان يهجوهم، فلمَّا سمعت قريش شعر حسان قالوا: إن هذا الشعر ما غاب عن ابن أبي قحافة، فمن شعر حسان في أبي سفيان بن الحارث:

وَإِنَّ سَنَامَ المَجْدِ فِي آلِ هَاشِمٍ = بَنُو بِنْتِ مَخْزُومٍ وَوَالِدُكَ العَبْدُ

وَمَنْ وَلَدَتْ أَبْنَاءُ زُهْرَةَ مِنْهُمُ = كِرَامٌ وَلَمْ يَقْرُبْ عَجَائِزَكَ المَجْدُ

وَلَسْتُ كَعَبَّاسٍ وَلاَ كَابْنِ أُمِّهِ = وَلَكِنْ لَئِيمٌ لاَ يَقُومُ لَهُ زَنْدُ

وَإِنَّ امْرَأً كَانَتْ سُمَيَّةُ أُمَّهُ = وَسَمْرَاءُ مَغْمُورٌ إِذَا بَلَغَ الجَهْدُ

وَأَنْتَ هَجِينٌ نِيطَ فِي آلِ هَاشِمٍ = كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ

فلما بلغ هذا الشعر أبا سفيان قال: هذا كلام لم يَغِب عنه ابن أبي قحافة.

ومن قول حسان أيضًا في أبي سفيان:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ = وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الجَزَاءُ

هَجَوْتَ مُطَهَّرًا بَرًّا حَنِيفًا = أَمِينَ اللهِ شِيمَتُهُ الوَفَاءُ

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ = فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي = لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

وهذا الشعر أوله:

عَفَتْ ذَاتُ الأَصَابِعِ فَالجَوَاءُ = إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلاَءُ[٢١]

قال ابن هشام في "السيرة" ج ٢ ص ٤٠٠- ٤٠٥: "قال ابن إسحاق: وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وعبدالله بن أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ أيضًا بنيق العُقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، وكلمته أم سلمة فيهما، فقالت: يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك وصهرك، قال: ((لا حاجة لي بهما؛ أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال))، قال: فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بُنَيٌّ له فقال: والله ليأذنن لي، أو لأخذن بيد بُني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت

٢١ وانظر القصيدة في "ديوان حسان بن ثابت بشرح البرقوقي"، نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر ص ١ - ١٠.

عطشًا وجُوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما ثم أذِن لهما، فدخلا عليه فأسلما، وأنشد أبو سفيان بن الحارث قوله في إسلامه، واعتذر إليه مما كان مضى منه فقال:

لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ أَحْمِلُ رَايَةً = لِتَغْلِبَ خَيْلُ اللاَّتِ خَيْلَ مُحَمَّدِ

لَكَالمُدْلِجِ الحَيْرَانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ = لِهَذَا أَوَانِي حِينَ أُهْدَى وَأَهْتَدِي

هَدَانِيَ هَادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَنَالَنِي = مَعَ اللهِ مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ

أَصُدُّ وَأَنْأَى جَاهِدًا عَنْ مُحَمَّدٍ = وَأُدْعَى وَإِنْ لَمْ أَنْتَسِبْ مِنْ مُحَمَّدِ

هُمُ مَا هُمُ مَنْ لَمْ يَقُلْ بِهَوَاهُمُ = وَإِنْ كَانَ ذَا رَأْيٍ يُلَمْ وَيُفَنَّدِ

أُرِيدُ لأُرْضِيهِمْ وَلَسْتُ بِلاَئِطٍ = مَعَ القَوْمِ مَا لَمْ أُهْدَ فِي كُلِّ مَقْعَدِ

فَقُلْ لِثَقِيفٍ لاَ أُرِيدُ قِتَالَهَا = وَقُلْ لِثَقِيفٍ تِلْكَ غَيْرِيَ أَوْعِدِي

فَمَا كُنْتُ فِي الجَيْشِ الَّذِي نَالَ عَامِرًا = وَمَا كَانَ عَنْ جَرًّا لِسَانِي وَلاَ يَدِي

قَبَائِلُ جَاءَتْ مِنْ بِلاَدٍ بَعِيدَةٍ = نَزَائِعُ جَاءَتْ مِنْ سِهَامٍ وَسَرْدَدِ

قال ابن هشام: ويروى:

..... وَدَلَّنِي = عَلَى الحَقِّ مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ

قال ابن إسحاق: فزعموا أنه حين أنشد رسولَ الله ﷺ قوله:

..... وَنالَنِي = مِنَ اللهِ مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ

ضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال: ((أنت طردتني كل مطرد؟!))، فلما نزل رسول الله ﷺ مرَّ الظهران، قال العباس بن عبدالمطلب: فقلت: وا صباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، قال: فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها، قال: حتى جئت الأراك فقلت لعلي: أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، قال: فوالله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا، قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، قال: يقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، قال: فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي فقال: أبو الفضل؟ قال: قلت: نعم، قال: ما لك فداك أبي وأمي؟ قال: قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس وا صباح قريش والله، قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي

ورجع صاحباه، قال: فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: مَن هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: مَن هذا؟ وقام إليَّ، فلمَّا رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدوُّ الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج عمر يشتدُّ نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته، فاقتحمتُ عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت: والله لا يناجيه الليلة دوني رجل، فلما أكثر عمر في شأنه قال: قلت: مهلاً يا عمر، فوالله أن لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلتَ هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبدمناف، فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسول الله ﷺ: ((اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به))، قال: ذهبت به إلى رحلي فبات عندي، فلمَّا أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ فلما رآه قال: ((ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟!))، فقال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئًا بعد، قال: ((ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟!)) قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا، فقال له العباس: ويحك أسلِم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، قبل أن تُضْرَب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق فأسلم، قال العباس: فقلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئًا، قال: ((نعم، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن))"[٢٢].

ويقول المؤلف ص ١٠٥ عن هدم اللات: "ويحكي ابن إسحاق فيقول: فخرجَا – وهو يعني: أبا سفيان والمغيرة – مع القوم حتى إذا قدِموا الطائف، أراد المغيرة بن شُعبة أن يقدم أبا سفيان، فأبى ذلك أبو سفيان عليه وقال: ادخل أنت على قومك، فلمَّا دخل المغيرة بن شعبة علاها – أي: اللات – يضربها بالمِعْوَل، وقام قومه بنو معتب دونه أن يُرْمَى أو يُصَاب، ويقول ابن إسحاق: ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس: واهًا لك واهًا لك، يدل بهاتين الكلمتين على أسفه وحزنه.

---

٢٢ حديث: ((مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن))؛ أخرجه مسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة ☐ في قصةٍ مطولاً بغير هذا السياق وأورده ابن القيم في "زاد المعاد" (٣٥٤٣-٣٥٥).

وجمع المغيرة بعد أن هدَم اللات مالها من الذهب والجزع وأعطاها أبا سفيان، وصار هذا في يدي أبي سفيان، وبقي في يديه إلى أن أمره رسول الله ﷺ أن يدفع منه دينًا كان على عروة، وكان عروة قد قُتِل في شيء يتصل باللات"٢٣.

يقول ص ٦٩: "فما كان أبو سفيان ليذِل – وهو رجل الجاهلية الأولى – أمام كبرياء الزوجة وغطرستها، وما كان معاوية ليهُون أمام عنف الأم، فلقد كان عندها رجلاً أيَّ رجل".

ويقول ص ٧٣: "ويعنينا أن نذكِّرك بكلمة أبي سفيان حين سأله الأخنس عن رأيه فيما سمع من محمد؛ فلقد قال أبو سفيان: والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُرَاد بها، وسمعت أشياء ما عرفتُ معناها ولا ما يراد بها، فهذه تدلُّك على أن أبا سفيان لم يكن ينظر نظرة جادَّة إلى هذا الدين الجديد، وإنما كان كل همِّه الخوف من أن يغلبه صاحب هذا الدين الجديد على جاهه في الدنيا".

ويقول ص ٧٨: "ودخل أبو سفيان المعركة – يعني: يوم أحد – يقاتل مع المقاتلين، فالتقى به حنظلة بن أبي عامر فتشابَكَا وعلا حنظلةُ أبا سفيان وكان على وَشْك أن يقتله، غير أن رجلاً من المشركين – هو شداد بن الأسود – رآهم ورأى أن حنظلة يعلو أبا سفيان، فسدَّد إلى حنظلة سهمًا رماه به فقتله".

ويقول في نفس الصفحة عن أبي سفيان: "فيُشرف على الجبل قبل أن ينصرف المشركون راجعين، ويصرُخ بأعلى صوته ويقول: أنعمت، فقال يخاطب نفسه: أي: أظهر دينك، وسمعه رسول الله ﷺ فقال لعمر: ((قم فأجبه، وقل: الله أعلى وأجلُّ لا سواء؛ قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار))٢٤.

ولكن لهذا الحديث بقيَّة باقية مؤلِمة، تكشف لنا عما كان يُكِنُّه أبو سفيان لمحمد؛ فلقد رآه عقبة في سبيل زعامته، فودَّ لو خلص منه لتخلو السبيل له، لم يودَّ ذلك الخلاص النبيل الشريف؛ أعني: أن يقهر خصمٌ خصمًا دون أن يقتله، ولكن أبا سفيان كانت أمنيته في تلك الحرب أن يرى محمدًا صريعًا وأن يراه مقتولاً؛ لتطمئن نفسه إلى أن الزعامة التي يبغيها قد باتت في يديه لا ينافسه عليها منافس قوي.

ولنستمع إلى أبي سفيان وهو يقول لعمر: هلم إليَّ يا عمر، ويقول رسول الله ﷺ لعمر: ((ائته فانظر ما شأنه))، ويجيء عمر إلى أبي سفيان فيقول أبو سفيان لعمر: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا

---

٢٣ انظر: "سيرة ابن هشام" ج ٢ ص ٥٤١، و"زاد المعاد" ج ٢ ص ٤٦٥، ج ٣ ص ٥٧– ٥٨، وقد أوردها ابن القيم بروايتين مختلفتين؛ إحداهما أن أبا سفيان لم يكن مع مَن أرسل لهدمها، وإن ما وجد من حليها ولباسها قد سُلِّم إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – فقسمه من يومه.

٢٤ أخرجه أحمد (٢٨٨/١) من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما.

محمدًا؟ فيقول عمر: اللهم لا، وإنه لَيَسْمع كلامك الآن، فيقول أبو سفيان – والحسرة تملأ عليه نفسه – أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبرُّ، وكان عبدالله بن قمئة قد أشاع ذلك وقال: إني قد قتلت محمدًا"، ويقول بعد ذلك: "وكان الرسول ﷺ قد توقَّع ذلك من المشركين – يعني: رجوع المشركين لقتال المسلمين بعد معركة أحد – وأراد أن يمضي في أثرهم؛ كي لا يظنوا به ضعفًا، وخرج جيش المسلمين في أثر المشركين".

ويقول ص ٨١: "وهكذا أراد أبو سفيان أن يكشف عن شيئين: أن يكشف عن حرصه على قتل محمد هذا الحرص الذي مرَّ بك شيءٌ عنه، هذا شيء، أما ثاني الشيئين – وما نظن أبا سفيان إلا أراده – هو أن يعرف حبَّ أصحاب محمد لمحمد، فمن شأن المنافِس والندِّ أن يتعرَّف ما عند خصمه من قوة، وما عند أصحاب خصمه من طواعية له أو خروج عليه".

وهذا الكلام الذي قاله المؤلف، قاله تعليقًا على سؤال أبي سفيان لزيد بن الدثنة عندما قَدِم للقتل: أنشُدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه وأنك في أهلك".

ويقول ص ٨٣: "وحين هَمَّ الرسولُ بدخول مكة وكان بينه وبين القُرَشِيين صلحٌ، وخرج عثمان بن عفان ليكون رسولَ رسول الله إلى أهل مكة، كان فيمَن لقي عثمان من عظماء قريش أبو سفيان، وكلَّم عثمان أبا سفيان مع عظماء قريش، ولكن أبا سفيان لم يجب عثمان إلى ما طلب واحتبسه عنده، وظنَّ رسول الله أن عثمان قد قُتِل وتهيَّأ لدخول مكة".

ويقول ص ٨٤: "عُلِم من هذا كما عُلِم من سابقه حبُّ الناس للرسول وتعلُّقهم به، ولكن أبا سفيان كان هنا كما كان هناك يحقِد لمثل هذا وذاك؛ لأنه يرى أن منافسه قد نزل في قلوب الناس منزلةً كبيرة، ولم يكن آن له أن يتدبر فقال لابنته: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر".

ويقول ص ٨٨ عن سفرة أبي سفيان إلى المدينة ليجدد الصلح مع الرسول: "وهنا ينطق أبو سفيان وتنطق الحسرة على لسانه فيقول: جئتُ محمدًا فكلَّمته، فوالله ما ردَّ علي شيئًا، ثم جئتُ ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدت أدنى[٢٥] العدو، ثم جئتُ عليًّا فوجدته أمين القوم وقد أشار علي بشيء صنعتُه، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئًا أم لا؟".

ويقول ص ٩٤ عن أبي سفيان: "فأنت ترى أن أبا سفيان في خرجته تلك لم يخرج ليبحث عن إيمان أو لينظر في عقيدة، وإنما خرج خروج محارب...".

ويقول ص ٩٥ بعد أن ذكر ما جرى لأبي سفيان قُبَيل لقاء الرسول ﷺ عام الفتح، ومعدِّدًا ما كان يصنعه ضدَّ المسلمين: "من أجل ذلك لم يأذن له الرسول، ولم يستجب له قلة الصحابة من

---

٢٥ في "زاد المعاد" (٣/٣٥٠): أعدى.

أقرباء له وغير أقرباء فيدخلوه على الرسول، ومن أجل ذلك سعى أبو سفيان سعيَه هذا؛ ليثبت لنفسه قبل أن يثبت لقومه".

ويقول ص ٩٨ عن مبايعة أبي سفيان: "يعز عليه آخر الأمرَ أن يُسْلِم قيادته ويُسْلِم زعامته إلى مَن كان منذ قريب ينافسه القيادة والزعامة".

ويقول في ص ١٠٣- ١٠٤: "وتمضي الأحداث تؤكد أن أبا سفيان لم يبعد في إسلامه عن أن يكون رجل دنيا لا رجل دين، ولم يبعد عن أن يكون لهذا الدين الذي دخله رجلاً ممَّن يعبدون الله على حرف"، ويدلِّل المؤلف على هذا الاستنتاج بقوله: "يقول ابن هشام: إن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال، فأمره أن يؤذن، وكان أبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوسًا بفناء الكعبة، فيقول عتاب بن أسيد لصاحبيه: لقد أكرم الله أسيدًا - يعني: أباه - أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه، فيقول الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محقٌّ لاتبعتُه، فيقول أبو سفيان: لا أقول شيئًا لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى، ويطلع عليهم النبي ﷺ وما كان حاضرهم فيقول لهم: ((قد علمت الذي قلتموه...))، ويذكر لهم ما قالوا، عندها يبهر الحارث ويبهر عتاب فينطقان بالشهادة فيقولون: إنك رسول الله... إلخ".

ويقول المؤلف ص ١٠٦: "ولعل آخر ما نختم به الكلام عن أبي سفيان في معتقده - ونعني: في إسلامه - هاتان الكلمتان اللتان أُثِرَتا عنه يرويهما أكثر من مؤرخ، كلهم قد أجمعوا عليهما غير خلاف بينهم يسير في الأداء؛ أُولى تلك الكلمتين هذه التي تروى حين قبض رسول الله ﷺ فقد رَوَوْا عن أبي سفيان أنه قال: تلقَّفوها الآن تلقُّف الكرة فما من جنة ولا نار.

أما الكلمة الثانية التي رواها المؤرخون لأبي سفيان فإنهم يقولون: لما ارتدَّت العرب قال أبو سفيان: يا آل غالب، الدين العتيق، وهو يعني - فيما أظن - أنه يهيب بهم في أن يرجعوا إلى دينهم الأول".

ويقول ص ١٠٩: "فإنهم يَرْوُون أن رسول الله ﷺ أذِن للناس بالدخول عليه يومًا، فكان آخر مَن أذن له بالدخول أبو سفيان، وحين دخل أبو سفيان على الرسول قال: يا رسول الله، لقد أَذِنت للناس قبلي حتى ظننت أن حجارة الخندمة ليؤذَن لها قبلي، فقال رسول الله ﷺ: ((أما والله إنك والناس لكما قال الأول: كل الصيد في جوف الفرا))[٢٦]، يعني: أن كل ما لهؤلاء من المنزلة، فإن لك وحدك مثل ما لهم كلهم.

---

٢٦ ذكره ابن الأثير الجزري في "النهاية" (١/٢٩٠) ونسبه محققًا "النهاية" لأبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، والله أعلم.

وترجم ابن الأثير في كتابه "أسد الغابة في معرفة الصحابة" لأبي سفيان ج ٥ ص ٢١٦ وقال في ترجمته: "وشهد الطائف مع رسول الله ﷺ ففُقِئت عينُه يومئذ وفُقِئت الأخرى يوم اليرموك، وشهد اليرموك تحت راية ابنه يزيد يقاتل ويقول: يا نصر الله اقترب، وكان يقف على الكراديس[٢٧] يقص ويقول: اللهَ اللهَ، إنكم دارة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم دارة الروم وأنصار الشرك، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك.

وروي أنه لما أسلم ورأى المسلمين وكثرتهم قال للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا قال: إنها النبوة، قال: فنعم إذًا.

وروى ابن الزبير أنه رأى أبا سفيان يوم اليرموك، وكان يقول إذا ظهرت الروم: إيه بني الأصفر، وإذا كشفهم المسلمون يقول:

وَبَنُو الأَصْفَرِ المُلُوكُ مُلُوكُ الرْ = رُومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمُ مَذْكُورُ

ونُقِل عنه من هذا الجنس أشياء كثيرة لا تثبت؛ لأنه فُقِئت عينه يوم اليرموك، ولو لم يكن قريبًا من العدو يُقاتِل لما فقئت عينه، وكان من المؤلَّفة وحسُن إسلامه"، ويتَّضح مما قاله ابن الأثير عدمُ صحة هذه الرواية وما شابهها.

وقال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه "تحت راية القرآن" ص ٢١١- ٢١٢ يردُّ على الدكتور طه حسين: "وانظر كيف يقول في صفحة ٥١ عن أبي سفيان في فتح مكة: فنظر فإذا هو بين اثنين: إمَّا أن يمضي على المقاومة فتفنى مكة، وإمَّا أن يصانع ويصالح ويدخل فيما دخل فيه الناس وينتظر؛ لعل هذا السلطان السياسي الذي انتقل من مكَّة إلى المدينة، ومن قريش إلى الأنصار – أن يعود إلى قريش وإلى مكة مرَّة أخرى، قال: وألقى الرماد على هذه النار التي كانت متأجِّجة بين قريش والأنصار، وأصبح الناس جميعًا – في ظاهر الأمر – إخوانًا مؤتلفين في الدين" انتهى نصًّا.

وقد طال انتظار أبي سفيان في رأي الشيخ المأفون حتى قام حفيد يزيد بن معاوية، فانتقم من غزوة بدر في وقعة الحرَّة كما قال في صفحة ٥٥ وفي هذه الصفحة يقول: "إن يزيد صورة صادقة لجده أبي سفيان في السخط على الإسلام، وما سنَّه للناس من سنن".

فأبو سفيان والصحابة – أو أكثرهم – منافقون في رأي الجامعة المصرية؛ لأنهم لم يكونوا إخوانًا مؤتلفين في الدين إلا في ظاهر الأمر، وأبو سفيان مع ذلك من كُتَّاب النبي ﷺ وقد شهد معه حنينًا والطائف وفُقِئت عينه في هذه، وهو القائل لرسول الله ﷺ بعد غزوة حنين: "والله إنك لكريم

---

٢٧ يعني: الكتائب، من "الكُرْدوسة" بالضم: قطعة عظيمة من الخيل، انظر: "القاموس المحيط".

فداك أبي وأمي، لقد حاربتُك فنِعم المحارب كنت، ولقد سالمتُك فنعم المسالم أنت"، أفهذا كلام منافق ينتظر ويتربَّص؟! على أن الذي ما يقضي العجَب منه أن رأي طه حسين هذا هو بعينه ونصه رأي الرافضة ومذهبهم؛ فقد زعموا أن الصحابة كانوا منافقين في حياة رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح، وجلة المهاجرين وخيار الأنصار.

فكيف يتفق كل هذا في كتاب الجامعة؟! وهل الذي فيها أستاذ للآداب أم هو أستاذ الكفر والرفض؟!

وانظر: "تاريخ ابن الأثير": ج ٢ ص ١٦٤- ١٦٦، و"زاد المعاد": ج ٢ ص ٣٩١، و"الإصابة في تمييز الصحابة": ج ١ ص ١٧٢ وج ٤ ص ٩٠، و"الخلاصة في أسماء الرجال": ص ١٤٦، و"الاستيعاب": ج ٤ ص ٨٦ المطبوع على هامش "الإصابة"، و"البداية والنهاية": ج ٤ ص ٢٨٧- ٢٨٨ وج ٧ ص ١٠٣، و"فتوح البلدان": ص ٥١، وكتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر": ج ٢ ص ٨٠٤، و"تاريخ ابن جرير" ج ٢ ص ٣٢٩- ٣٣٢، و"التهذيب": ج ١ ص ٢٣٣، و"الأغاني": ج ٦ ص ٨٩، و"ابن عساكر": ج ٦ ص ٣٨٨، و"تهذيب الأسماء واللغات": ج ٢ ص ٢٣٩، و"أسد الغابة": ج ٥ ص ٢١٣- ٢١٦، و"تهذيب التهذيب": ج ٤ ص ٤١١، و"الأعلام": ج ٣ ص ٢٨٨، و"تاريخ العصامي": ج ٢ ص ٧٧، و"محاضرات الخضري": ج ١ ص ١٣٠، و"المحبر": ص ٢٤٦، و"نكت الهميان": ص ١٧٢.

وذكر ابن كثير في "تفسيره" ج ٤ ص ٣٤٩ أن أبا سفيان أسلم ليلة الفتح بلا خلاف.

يقول المؤلف ص ١١٧: "وحين آخَى رسول الله ﷺ بين نفر من أصحابه من المهاجرين، وآخَى بين أبي بكر وعمر وبين عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف، وبين طلحة بن عبيدالله وبين الزبير بن العوام، وبين أبي ذر الغفاري والمقداد بن عمرو البهراني.

آخَى كذلك بين معاوية بن أبي سفيان والحُتات بن يزيد المجاشعي، ولقد مات الحتات هذا عند معاوية في خلافته، فأخذ معاوية ما ترك وراثةً بهذه الأخوَّة، فقال الفرزدق لمعاوية:

أَبُوكَ وَعَمِّي يَا مُعَاوِيَ أَوْرَثَا = تُرَاثًا فَيَحْتَازُ التُّرَاثَ أَقَارِبُهْ

فَمَا بَالُ مِيرَاثِ الحُتَاتِ أَكَلْتَهُ = وَمِيرَاثُ حَرْبٍ جَامِدٌ لَكَ دَائِنُهْ"[٢٨]

ويقول ص ١٢١: "ولقد ظلَّ معاوية حتى بعد أن جاوز تلك السن ٢٨ عامًا لا يستطيع أن يبرِم أمرًا، أو يقضي في شيء إلا إذا عرف رأي أبيه فيه".

---

٢٨ في "أسد الغابة": (٦٨٨/١١٢):

..... = وَمِيرَاثُ صَخْرٍ جَامِدٌ لَكَ دَائِنُهْ

ويقول ص ١٢٢: "ونعني: أن معاوية ظل نصف عمره يستملي من أبيه، ونصف عمره التالي يستملي من نفسه".

غير أن المؤلف في الصفحة التالية ١٢٣- ١٢٤ يقول بعد أن أشار إلى بعض الأخبار عن معاوية قال: "هذا أكثر ما أُثِر لمعاوية وهو والٍ على الشام لعمر، فنكاد لا نقع بين دفَّات كتب التاريخ على غيره، لا ندري أكان ذلك لأن معاوية لم تكن له الصفة المستقلَّة في حياة أبيه، فمرَّت تلك الحقبة التي عاشها في ظل أبيه لأبيه وليست له، أم كانت صفحات الولاة من صفحات الخليفة تكاد تضُمُّ صفحات الولاة إلى صفحة الخليفة، للخليفة فيها كل شيء وللولاة فيها بعض الشيء، أم لأن تلك الحياة الأولى – حياة الفتح أيام الخليفة الثاني – كانت لا تعدو إلا أن يأمر الخليفة ويطيع الوالي، وتمضي الأمور بين الخليفة والوالي سلمًا كلها لينة، لا يكون فيها شيء يستحق أن يدوَّن، اللهم إلا إذا كان عصيانًا أو خروجًا عن طاعة، أو شيئًا قريبًا من هذا وذاك يستحق أن يثار، ويستحق أن يدون للوالي مع تدوينه للخليفة".

ويقول ص ١٦٤: "ومعاوية رجل كان يطمع في أكثر ما يرى ابن عباس ويرى المغيرة، وما نظن ابن عباس والمغيرة كانا يستطيعان أن يفوِّتا عليه ما كان يطمع فيه".

* * *

حديث المؤاخاة

قال الحاكم: حدثنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن الجنيد، ثنا الحسين بن جعفر القرشي، ثنا العلاء بن عمرو الحنفي، ثنا أيوب بن مدرك، عن مكحول، عن أبي أمامة قال: لما آخَى رسول الله ﷺ بين الناس، آخى بينه وبين علي، ثم قال الحاكم: لم نكتبه من حديث مكحول إلا من هذا الوجه، وكان المشايخ يعجبهم هذا الحديث؛ لكونه من رواية أهل الشام، قلت: وفي صحة هذا الحديث نظر.

وورد من طريق أنس وعمر: أن رسول الله ﷺ قال: ((أنت أخي في الدنيا والآخرة))٢٩ وكذلك من طريق زيد بن أبي أوفى وابن عباس، ومحدوج بن زيد الذهلي، وجابر بن عبدالله، وعامر بن ربيعة، وأبي ذر وعلي نفسه نحو ذلك، وأسانيدها كلها ضعيفة لا يقوم بشيء منها حجة، والله أعلم..." إلخ.

وقال ابن القيم في كتابه "زاد المعاد": ج ٢ ص ١٤٦- ١٤٧: "ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله - عز وجل -: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ [الأحزاب: ٦] رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة، وقد قيل: إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية، واتَّخذ فيها عليًّا أخًا لنفسه، والثابت الأول، والمهاجرون كانوا مستغنين بأُخُوَّة الإسلام، وأُخُوَّة الدار، وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار، ولو آخى بين المهاجرين، كان أحق الناس بأخوَّته أحب الخلق إليه، ورفيقه في الهجرة وأنيسه في الغار، وأفضل الصحابة وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق، وقد قال: ((لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً، لاتَّخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل))٣٠، وفي لفظ: ((ولكن أخي وصاحبي))٣١، وهذه الأخوة في الإسلام، وإن كانت عامَّة؛ كما قال: ((وددت أن قد رأينا إخواننا))، قالوا: ألسنا إخوانك؟ قال: ((أنتم أصحابي، وإخواني قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي

---

٢٩ أخرجه الترمذي (٣٧٢٠)، والحاكم (١٤/٣) من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر ، وقال الترمذي: "حسن غريب"، قال الذهبي: جميع اتُّهم، أه، وأورد له الذهبي في "الميزان" حديثه هذا (١٥٥٢).

٣٠ أخرجه البخاري (٤٦٧) و(٣٦٥٦) و(٣٦٥٧) و(٦٧٣٨) من حديث ابن عباس ، وأخرجه أيضًا البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه.

٣١ أخرجه مسلم (٢٣٨٣) من حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه.

ولم يروني))[٣٢]، فللصديق من هذه الأخوَّة أعلى مراتبها كما له من الصحبة أعلى مراتبها، فالصحابة لهم الأخوة ومزية الصحبة، ولأتباعهم بعدهم الأخوة دون الصحبة.

وقال ابن كثير في تفسير قوله – تعالى –: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفَال: ٧٥]: "بل الحق أن الآية عامَّة تشمل جميع القرابات كما نصَّ عليه ابن عباس ومجاهد، وعكرمة والحسن، وقتادة وغير واحد، على أنها ناسخة للإرث بالحِلف والإخاء اللَّذَين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص".

قال ابن عبدالبر في كتابه "الاستيعاب في أسماء الأصحاب"[٣٣]: "الحُتات بن يزيد بن علقمة بن جوني بن سفيان بن مجاشع بن دارم المجاشعي التميمي، هكذا هو الحتات بتائين منقوطتين باثنين قَدِم على النبي ﷺ في وفد بني تميم؛ منهم: عطارد بن حاجب، والأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، وعمرو بن الأهتم، والحتات بن يزيد، ونعيم بن زيد، فأسلم وأسلموا، ذكره ابن إسحاق وابن هشام والكلبي، وقالوا: آخى رسول الله ﷺ بين الحتات وبين معاوية بن أبي سفيان، فمات الحتات عند معاوية في خلافته فورثه بتلك الأخوة، فقال الفرزدق في ذلك لمعاوية:

أَبُوكَ وَعَمِّي يَا مُعَاوِيَ أَوْرَثَا = تُرَاثًا فَيَحْتَازُ التُّرَاثَ أَقَارِبُهْ

فَمَا بَالُ مِيرَاثِ الحُتَاتِ أَكَلْتَهُ = وَمِيرَاثُ حَرْبٍ جَامِدٌ لَكَ دَائِنُهْ

قال ابن هشام: وهذان البيتان في أبيات له، والحتات بن يزيد هذا هو القائل:

لَعَمْرُ أَبِيكَ فَلاَ تَكْذِبَنْ = لَقَدْ ذَهَبَ الخَيْرُ إِلاَّ قَلِيلاَ

لَقَدْ فُتِنَ النَّاسُ فِي دِينِهِمْ = وَخَلَّى ابْنُ عَفَّانَ شَرًّا طَوِيلاَ

...إلخ".

وقال ابن حجر في "الإصابة في تمييز الصحابة"[٣٤]: "وقال ابن عبدالبر: ذكر ابن إسحاق وابن الكلبي وابن هشام: أن النبي ﷺ آخى بين الحتات ومعاوية، فمات الحتات عند معاوية في خلافته فورثه بالأخوة، فقال الفرزدق في ذلك، فذكر البيتين الاثنين، قال ابن هشام: هما في قصيدة، وقال المدائني: كان الحتات مع معاوية في حروبه، فوفد عليه في خلافته فخرجت جوائزهم، فأقام الحتات حتى مات، فقَبَض معاوية مالَه فخرج إليه الفرزدق وهو غلام فأنشده:

أَبُوكَ وَعَمِّي يَا مُعَاوِيَ أَوْرَثَا = تُرَاثًا فَيَحْتَازُ التُّرَاثَ أَقَارِبُهْ

---

٣٢ أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه.

٣٣ ج ١ ص ٣٩٣، المطبوع بهامش "الإصابة" سنة ١٣٥٨هـ بمطبعة مصطفى محمد بمصر.

٣٤ ج ١ ص ٣١٠، المطبوع مع كتاب "الاستيعاب" بمطبعة مصطفى محمد بمصر، سنة ١٣٥٨هـ.

فَمَا بَالُ مِيرَاثِ الحُتَاتِ أَكَلْتَهُ = وَمِيرَاثُ حَرْبٍ جَامِدٌ لَكَ دَائِنُهْ

الأبيات فدفع إليه ميراثه.

وقال أبو عمر: كان للحتات بَنون: عبدالله، وعبدالملك، وغيرهما، وقد ولي بنو الحتات لبني أمية؛ انتهى.

قال ابن حجر: وينظر كيف يجتمع هذا مع قصة معاوية في حيازته ميراثه؟

وفي "سيرة ابن هشام" في حوادث سنة تسع من الهجرة ج ٢ ص ٥٦٠ نقلاً عن ابن إسحاق: "فقدمت على رسول الله ﷺ وفود العرب، فقدم عليه عُطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي في أشراف بني تميم؛ منهم: الأقرع بن حابس التميمي، والزبرقان بن بدر التميمي أحد بني سعد، وعمرو بن الأهتم، والحتات بن يزيد.

قال ابن هشام: الحُتات وهو الذي آخَى رسول الله ﷺ بينه وبين معاوية بن أبي سفيان، وكان رسول الله ﷺ قد آخى بين نفر من أصحابه من المهاجرين بين أبي بكر وعمر، وبين عثمان وعبدالرحمن بن عوف، وبين طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام، وبين أبي ذر الغفاري والمقداد بن عمرو البهراني، وبين معاوية بن أبي سفيان والحتات بن يزيد المجاشعي، فمات الحتات عند معاوية في خلافته، فأخذ معاوية ما ترك وراثةً بهذه الأخوة، فقال الفرزدق لمعاوية:

أَبُوكَ وَعَمِّي يَا مُعَاوِيَ أَوْرَثَا = تُرَاثًا فَيَحْتَازُ التُّرَاثَ أَقَارِبُهْ

فَمَا بَالُ مِيرَاثِ الحُتَاتِ أَكَلْتَهُ = وَمِيرَاثُ حَرْبٍ جَامِدٌ لَكَ دَائِنُهْ

... إلخ.

ومع ما ذكره ابن هشام وابن عبدالبر في هذه القصة، فإني أشك في صحتها للأسباب التالية:

١- أن الحتات لم يُسْلِم إلا سنة تسع وهي سنة الوفود، وكان من بين وفد بني تميم، والمؤاخاة كانت في بدء الهجرة ثم نسخت بعد مُدَّة قريبة، فلم يَعُد التوارث بها قائمًا؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ﴾ [النِّسَاء: ١١] الآيات.

٢- أن معاوية بن أبي سفيان أسلم عام الفتح، وكان الميراث بالمؤاخاة قد نُسِخ منذ سنتين.

٣- أن التوارث بالمؤاخاة قد نُسِخ، فكيف يَرِث بها معاوية الحتات، مع أن معرفة نسخها معلومة ثابتة؟!

٤- وهل معاوية في ملكه الواسع في حاجة إلى ميراث الحتات؛ حتى يحتاج إلى تعريض نفسه لهجاء الفرزدق؟! وتصوُّر هذا يغني عن رده.

٥- كان العرب يتوارثون بالحلف قبل الإسلام، ولعل هذا هو الذي كان بين معاوية بن أبي سفيان والحتات، على تقدير صحة الحلف بينهما، وقد أشار ابن كثير في تفسيره إلى التوارث بالحلف.

فلما جاء الإسلام، آخى الرسول بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار؛ لإذهاب الوحشة عند المهاجرين، وربط الصلات الوثيقة بين القادمين وأهل المدينة، ثم نسخ ذلك وبقي التوارث بالقرابة والتزاوُج على ما هو مدوَّن في كتب التفسير والحديث والفقه، وما هو مستقًى من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وفتاوى الصحابة الكرام، فقد كان إسلام الحتات سنة تسع، وقد كان مع وفد بني تميم.

قال ابن الأثير في حوادث سنة تسع من الهجرة: "وفيها قدم على رسول الله ﷺ وفد بني تميم مع حاجب بن زرارة بن عدس؛ وفيهم: الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وقيس بن عاصم، والحتات، ومعتمر بن زيد في وفد عظيم"٣٥.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣]، فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ويقول: ترثني وأرثك، وكان الأحياء يتحالفون فقال رسول الله ﷺ: ((كل حلف في الجاهلية أو عقد أدرك الإسلام، فلا يزيده الإسلام إلا شِدَّة، ولا عقد ولا حلاف في الإسلام))، فنسختها هذه الآية: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦]، ثم قال: وروي عن سعيد بن جبير ومجاهد، وعطاء والحسن، وابن المسيب وأبي صالح، وسليمان بن يسار والشعبي، وعكرمة والسدي، والضحاك وقتادة، ومقاتل بن حيان، أنهم قالوا: هم الحلفاء.

وروى مسلم في "صحيحه" عن جبير بن مطعِم قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا حلف في الإسلام، وأيُّما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة"٣٦، ورواه أحمد أيضًا.

وعن أم سلمة مرفوعًا نحوه رواه أحمد، وروي عن قيس بن عاصم أنه سأل النبي ﷺ عن الحلف قال: فقال: ((ما كان من حلف في الجاهلية، فتمسَّكوا به ولا حلف في الإسلام))٣٧، رواه أحمد، وروى أحمد أيضًا عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة

---

٣٥ انظر: "سيرة ابن هشام": ج ٢ ص ٥٦٠.

٣٦ أخرجه مسلم (٢٥٣٠).

٣٧ أخرجه أحمد (٦١/٥)، والطبراني في "الكبير" (٨٦٤/١٨).

عام الفتح، قام خطيبًا في الناس فقال: ((يا أيها الناس ما كان من حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة، ولا حلف في الإسلام))[٣٨].

وقال البغوي في "تفسيره"[٣٩]: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٣٣] قرأ أهل الكوفة: عقدت بلا ألف؛ أي: عقدت لهم أيمانكم، وقرأ الآخرون عاقدت أيمانكم، والمعاقدة: المحالفة والمعاهدة، والأيمان: جمع يمين من اليد والقسم، وذلك أنهم كانوا عند المحالفة يأخذ بعضهم بيَدِ بعض على الوفاء والتمسُّك بالعهد، ومحالفتهم: أن الرجل كان في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول: دمي دمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، وترثني وأرِثُك، وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عنِّي وأعقل عنك، فيكون للحليف السدس من مال الحليف، وكان ذلك في ابتداء الإسلام، فذلك قوله – تعالى –: ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النِّسَاء: ٣٣]؛ أي: أعطوهم حظهم من الميراث، ثم نسخ ذلك بقوله – تعالى –: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقال إبراهيم ومجاهد: أراد: فآتوهم نصيبهم من النصر والرفد ولا ميراث لهم، وعلى هذا تكون الآية غير منسوخة لقوله – تعالى –: ﴿أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال رسول الله ﷺ في خطبته يوم فتح مكة: ((لا تحدثون حلفًا في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية، فتمسَّكوا به؛ فإنه لم يزده الإسلام إلا شدة))[٤٠].

وقال ابن عباس – رضي الله عنهما –: أنزلت هذه الآية في الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار حين قَدِموا المدينة، وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة دون الرحم فلما نزلت ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ [النِّسَاء: ٣٣] نسخت ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٣٣]، فآتوهم نصيبهم من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث فيوصى له.

وقال سعيد بن المسيب: كانوا يتوارثون بالتبنِّي، وهذه الآية فيه ثم نسخ.

ويفهم من تقديم البغوي للقول بأنهم كانوا يتوارَثون بالحلف ثم نسخ ذلك أنه يؤيده، وكذلك صنع الشيخ علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف بالخازن في تفسيره، والفخر الرازي في

---

٣٨ أخرجه أحمد (٢/١٥).

٣٩ ج ١ ص ٤٣١ المطبوع بهامش "تفسير الخازن".

٤٠ أخرجه أحمد (٢/٢١٥) بنحوه، وتقدم.

تفسيره٤١، وقال ابن العربي في "أحكام القران"٤٢: المسألة الرابعة: قوله – تعالى –: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٣٣].

اختلف الناس فيه وابن عباس، فتارة قال: كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر فأنزل الله – تعالى –: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزَاب: ٦]؛ يعني: تؤتوهم من الوصية جميلاً وإحسانًا في الثلث المأذون فيه، وتارة قال: كان المهاجرون لما قدموا المدينة حالف النبي – صلى الله عليه وسلم – بينهم، فكان الأنصاري يرث المهاجري، والمهاجري يرث الأنصاري، فنزلت هذه الآية، ثم انقطع ذلك، فلا تواخي بين أحد اليوم.

وقال ابن المسيب: نزلت في الذين كانوا يتبنون الأبناء فردَّ الله الميراث إلى ذوي الأرحام والعصبة، وجعل لهم نصيبًا في الوصية.

وقد أحكم ذلك ابن عباس في "الصحيح" بيانًا بما رواه عن رسول الله ﷺ برهانًا، قال البخاري: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في الصحيح: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾، قال: وَرَثَة.

والذين عقدت أيمانكم، فكان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه؛ للأخوة التي آخى بها النبي ﷺ بينهم فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ [النساء: ٣٣] نسخت، ثم قال: والذين عقدت أيمانكم من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصى له، وهذه غاية ليس لها مطلب.

المسألة الخامسة: قال أبو حنيفة: حكم الآية باقٍ، مَن يرث به وبالاشتراك في الديوان؛ لاشتراكهما عنده في العقل.

وهذا بابٌ قد استوفيناه في مسائل الخلاف، وقد بيَّنا هاهنا معنى الآية، وحققنا أنه ليس وراءها معنى.

وصحح ابن كثير في "تفسيره"٤٣: "أن هذا كان في ابتداء الإسلام يتوارثون بالحلف، ثم نسخ وبقي تأثير الحلف بعد ذلك، وإن كانوا قد أُمِروا أن يوفوا بالعهود والعقود والحلف الذي كانوا قد

---

٤١ ج ١٠ ص ٨٥- ٨٦.

٤٢ ج ١ ص ٤١٤- ٤١٥.

٤٣ ج ١ ص ٤٩٠.

تعاقدوا عليه قبل ذلك، وتقدَّم في حديث جبير بن مطعم وغيره من الصحابة: ((لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة))[٤٤].

وهذا نصٌّ في الرد على مَن ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه ورواية عن أحمد بن حنبل، والصحيح قول الجمهور ومالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه؛ ولهذا قال - تعالى -: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ [النِّسَاء: ٣٣]؛ أي: ورثة من قراباته من أبويه وأقربيه، وهم يرثونه دون سائر الناس؛ كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: ((ألحِقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأَوْلى رجل ذكر))[٤٥]؛ أي: اقسموا الميراث على أصحاب الفرائض الذين ذكرهم الله في آيتي الفرائض، فما بقي بعد ذلك فأعطوه للعصبة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٣٣]؛ أي: قبل نزول هذه الآية فآتوهم نصيبهم؛ أي: من الميراث، فأما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له.

وقد قيل: إن هذه الآية نسخت الحلف في المستقبل، وحكم الحلف الماضي أيضًا فلا توارث به، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إدريس الأودي، أخبرني طلحة بن مصرف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النِّسَاء: ٣٣]، قال: من النصرة والنصيحة والرفادة، ويوصي له وقد ذهب الميراث، ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن أبي أسامة، وكذا روي عن مجاهد وأبي مالك نحو ذلك، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٣٣]، قال: كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات وَرِثه الآخر فأنزل الله: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزَاب: ٦]، يقول: إلاَّ أن توصوا لهم بوصية فهي لهم جائزة من ثلث المال، وهذا هو المعروف، وهكذا نصَّ غيرُ واحد من السلف أنها منسوخة بقوله: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزَاب: ٦]، وقال سعيد بن جبير: فآتوهم نصيبهم؛ أي: من الميراث، قال: وعاقَد أبو بكر مولى له فورثه؛ رواه ابن جرير.

وقال الزهري عن ابن المسيب: نزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنَّون رجالاً غير أبنائهم يورثونهم، فأنزل الله فيهم فجعل لهم نصيبًا من الوصية؛ رواه ابن جرير، وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله:

---

٤٤ سبق تخريجه.

٤٥ أخرجه البخاري (٦٧٣٢) و(٦٧٣٥) و(٦٧٣٧) و(٦٧٤٦) ومسلم (١٦١٥).

﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾؛ أي: من النصرة والنصيحة والمعونة، لا أن المراد فآتوهم نصيبهم من الميراث حتى تكون الآية منسوخة، ولا أن ذلك كان حكمًا ثم نسخ، بل إنما دلَّت الآية على الوفاء بالحلف المعقود على النصرة والنصيحة فقط، فهي مُحْكَمة لا منسوخة، وهذا الذي قاله فيه نظر؛ فإن من الحلف ما كان على المناصرة والمعاونة، ومنه ما كان على الإرث كما حكاه غير واحد من السلف، وكما قال ابن عباس: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه حتى نسخ ذلك، فكيف يقول: إن هذه الآية مُحْكَمة غير منسوخة؟! والله أعلم" انتهى كلام الحافظ ابن كثير.

وقال ابن كثير أيضًا٤٦ في تفسير قوله – تعالى –: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦]؛ "أي: القرابات أَوْلَى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجريُّ يرث الأنصاريَّ دون قراباته وذوي رحمه؛ للأخوَّة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف.

وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حديثًا عن الزبير بن العوام ﷺ قال: أنزل الله – عز وجل – فينا خاصَّة – معشرَ قريش والأنصار –: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦]، وذلك أنا معشر قريش لما قَدِمنا المدينة قَدِمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نِعْمَ الإخوان فواخيناهم ووارثناهم؛ فآخى أبو بكر ﷺ خارجة بن زيد، وآخى عمر ﷺ فلانًا، وآخى عثمان ﷺ رجلاً من بني زريق بن سعد الزرقي – ويقول بعض الناس غيره – قال الزبير ﷺ: وواخيت أنا كعب بن مالك فجئته فابتعلته٤٧، فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، فوالله يا بني لو مات يومئذٍ عن الدنيا ما ورثه غيري حتى أنزل الله – تعالى – هذه الآية فينا – معشرَ قريش والأنصار خاصَّة – فرجعنا إلى مواريثنا.

وقوله – تعالى –: ﴿إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٦]؛ أي: ذهب الميراث وبقي النصر والصلة والإحسان والوصية".

وفي ص ١٧٨ يقول: "ولكنها كانت دنيا غلبت معاوية على نفسه، وكان دينًا غلب عليًّا على نفسه".

---

٤٦ ج ٣ ص ٤٦٨.

٤٧ أي: فجالسته.

وفي ص ١٨٦- ١٨٧ يقول: "ها أنت ترى أن معاوية يطلب الدنيا بأسباب الدنيا، ويحاول أن يرغِّب الناس في هذه الدنيا كما يرغب هو فيها، لا يعنيه أن يخون الناس وأن يكون هو حاملهم على هذه الخيانة، ولا يعنيه أن تفسد ضمائر الناس وأن يكون هو الذي يفسد ضمائرهم".

وفي ص ١٨٨ أورد خطابًا لقيس بن سعد إلى معاوية ولم يسنده إلى مَن خرَّجه، وجاء في هذا الخطاب المنسوب لقيس قوله: "وتأمرني بالدخول في طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأَقْوَلهم بالزور وأضلهم سبيلاً، وأبعدهم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم — وسيلة، ولد ضالِّين مضلِّين، طاغوت من طواغيت إبليس"، ثم يعلِّق المؤلف بعد ذلك بقوله: "ولكن معاوية كان رجل دنيا كما قلنا لك، والرجل الذي يحب الدنيا يحتال لهذه الدنيا".

ويقول ص ٢١٢: "وإن نهج معاوية كان للدنيا ومع الدنيا؛ إن رغب أو نفر فباسم الدنيا، وإن أجرى أمرًا أجراه مع الدنيا جاعلاً الدين له وحده معتقدًا وعبادة".

ويورد ص ٢٢٣- ٢٢٤ قصةً مؤدَّاها: أن معاوية دبَّر حيلة لقتل الأشتر حين خرج إلى مصر واليًا عليها من قِبَل علي"، ثم يقول: "وبهذا الأسلوب الدنيوي الباطل قضى معاوية على الأشتر، وأراح نفسه من خصم لم يستطع أن يلقاه لقاء الرجل الشريف من أمامه، فلقيه لقاء الرجل المحتال من وراء ظهره، ومعاوية الذي لم يتورَّع أن يغري الناس بخيانة الناس لم يتورَّع أن يخدع الناس بقوله، كله رياء، وكله مداهنة، وكله باطل".

ويقول ص ٢٢٨: "الأمر الذي شجَّع معاوية على أن يقف لعلي وعلى أن يهيِّئ نفسه لانتزاع الملك منه بعد أن أصبح ينازعه الإمارة، يرى نفسه خليفة، ويرى نفسه أمير المؤمنين، ويرى واجبًا عليه أن يقضي في أمر علي".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "الفتاوى" ج ٤ ص ٤٧٦: "ومَن قال عن معاوية وأمثاله ممَّن أظهر إسلامه وصلاته وحجه وصيامه: أنه لم يسلم، وأنه كان مقيمًا على الكفر - فهو بمنزلة مَن يقول ذلك في غيره، كما لو ادَّعى مُدَّعٍ ذلك في العباس وجعفر وعقيل، وفي أبي بكر وعمر وعثمان، وكما لو ادعى أن الحسن والحسين ليسا ولدي علي بن أبي طالب؛ إنما هما أولاد سلمان الفارسي، ولو ادعى أن النبي ﷺ لم يتزوج ابنة أبي بكر وعمر، ولم يزوج بنتيه عثمان، بل إنكار إسلام معاوية أقبح من إنكار هذه الأمور؛ فإن منها ما لا يعرفه إلا العلماء.

وأما إسلام معاوية وولايته على المسلمين والإمارة والخلافة، فأمرٌ يعرفه جماهير الخلق، ولو أنكر منكر إسلام علي أو ادَّعى بقاءه على الكفر، لم يحتجَّ عليه إلا بمثل ما يحتج به على من أنكر

إسلام أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية وغيرهم، وإن كان بعضهم أفضل من بعض؛ فتفاضلهم لا يمنع اشتراكهم في ظهور إسلامهم.

وأما قول القائل: إيمان معاوية كان نفاقًا، فهو أيضًا من الكذب المختلَق؛ فإنه ليس في علماء المسلمين من اتهم معاوية بالنفاق، بل العلماء متَّفقون على حسن إسلامه، وقد توقَّف بعضهم في حسن إسلام أبي سفيان أبيه.

وأما معاوية وأخوه يزيد، فلم يتنازعوا في حسن إسلامهما كما لم يتنازعوا في حسن إسلام عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وأمثالهم من مُسْلِمة الفتح، وكيف يكون رجلاً متولِّيًا على المسلمين أربعين سنة نائبًا ومستقلاًّ، يصلي بهم الصلوات الخمس ويخطب ويعظهم، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويقيم فيهم الحدود ويقسم بينهم فيئهم ومغانمهم وصدقاتهم، ويحج بهم، ومع هذا يخفى نفاقُه عليهم كلهم؟! وفيهم من أعيان الصحابة جماعة كثيرة، بل أبلغ من هذا أنه – ولله الحمد – لم يكن من الخلفاء الذين لهم ولاية عامة من خلفاء بني أمية وبني العباس أحد يُتَّهم بالزندقة والنفاق، وبنو أمية لم يُنْسَب أحدٌ منهم إلى الزندقة والنفاق، وإن كان قد ينسب الرجل منهم إلى نوع من البدعة أو نوع من الظلم؛ لكن لم ينسب أحدًا منهم من أهل العلم إلى زندقة ونفاق.

واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة، وهو أول الملوك، كان ملكه ملكًا ورحمة...".

وكذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في "المنهاج" ج ٢ ص ٢٣٤ ردًّا على الرافضي في قوله: إن معاوية شر من إبليس: "هذا الكلام فيه من الجهل والضلال والخروج عن دين الإسلام وكل دين، بل وعن العقل الذي يكون للكثير من الكفار ما لا يخفى على مَن تدبره.

أما (أولاً): فإن إبليس أكفر من كل كافر، وكل مَن دخل في النار فمن أتباعه؛ كما قال – تعالى –: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، وهو الآمِر لهم بكل قبيح المزيِّن له، فكيف يكون أحدٌ شرًّا منه، لاسيما من المسلمين من الصحابة؟!".

إلى أن يقول: "ويقال: (خامسًا): قوله: إن معاوية لم يزل في الإشراك إلى أن أسلم به يظهر الفرق فيما قصد به الجمع، فإن معاوية أسلم بعد الكفر، وقد قال – تعالى –: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وتاب من شركه وأقام الصلاة وآتى الزكاة، وقد قال – تعالى –: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]،

وإبليس كَفَر بعد إيمانه فحبط إيمانه بكفره، وذلك حبط كفره بإيمانه، فكيف يُقَاس مَن آمن بعد كفر بِمَن كفر بعد إيمان؟!

ويقال: (سادسًا): قد ثبت إسلام معاوية ﷺ والإسلام يجبُّ ما قبله، فمَن ادَّعى أنه ارتدَّ بعد ذلك كان مدعيًا دعوى بلا دليل، لو لم يعلم كذب دعواه، فكيف إذا علم كذب دعواه وأنه ما زال على الإسلام إلى أن مات؟! كما عُلِم بقاء غيره على الإسلام، فالطريق الذي عُلِم به بقاء إسلام أكثر الناس من الصحابة وغيرهم يُعْلَم به بقاء إسلام معاوية – رضي الله عنه.

والمدَّعي لارتداد معاوية وعثمان وأبي بكر وعمر ليس هو أظهر حجة من المدعي لارتداد علي، فإن كان المدعي لارتداد علي كاذبًا، فالمدَّعي لارتداد هؤلاء أظهر كذبًا؛ لأن الحجة على بقاء إيمان هؤلاء أظهر، وشبهة الخوارج أظهر من شبهة الروافض".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في كتابه "منهاج السنة" ج ٢ ص ٣٠١ ردًّا على الرافضي في ما نسبه إلى معاوية مما لا يصحُّ: "أمَّا ما ذكره من أن النبي ﷺ لعن معاوية وأمر بقتله إذا رُئِي على المنبر، فهذا الحديث ليس في شيء من كتب الإسلام التي يُرْجَع إليها في علم النقل، وهو عند أهل المعرفة بالحديث كَذِب موضوع مختَلَق على النبي ﷺ وهذا الرافضي الراوي له لم يذكر له إسنادًا حتى ينظر فيه، وقد ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في "الموضوعات"، ومما يبين كذبه أن منبر النبي ﷺ قد صعد عليه بعد موت معاوية مَن كان معاويةُ خيرًا منه باتِّفاق المسلمين، فإن كان يجب قتل مَن صعد عليه لمجرد الصعود على المنبر، وجب قتل هؤلاء كلهم.

ثم هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام: أن مجرَّد صعود المنبر لا يبيح قتل مسلم، وإن كان أمر بقتله لكونه تولى الأمر وهو لا يصلح، فيجب قتل كل مَن تولى الأمر بعد معاوية ممَّن معاوية أفضل منه.

وهذا خلاف ما تواترت به السنن عن النبي ﷺ من نهيه عن قتل ولاة الأمور وقتالهم، كما تقدم بيانه.

ثم الأمَّة متَّفقة على خلاف هذا؛ فإنها لم تقتل كل مَن تولى أمرها ولا استحلَّت ذلك.

ثم هذا يوجب من الفساد والهَرَج ما هو أعظم من ولاية كل ظالم، فكيف يأمر النبي ﷺ بشيء يكون فعله أعظم فسادًا من تركه؟!

وأما قوله: الطليق ابن الطليق، فهذا ليس نعت ذم، فإن الطلقاء هم مُسلِمة الفتح الذين أسلموا عام فتح مكة وأطلقهم النبي ﷺ وكانوا نحو ألفي رجل، ومنهم مَن صار من خيار المسلمين؛ كالحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، ويزيد بن أبي

سفيان، وحكيم بن حزام، وأبي سفيان بن الحارث ابن عمِّ النبي ﷺ الذي كان يهجوه ثم حَسُن إسلامه، وعتاب بن أسيد الذي ولاَّه النبي ﷺ مكة لما فتحها، وغير هؤلاء ممَّن حسن إسلامه باتِّفاق أهل العلم.

ولهذا ولاه عمر بن الخطاب ﷺ موضع أخيه يزيد بن أبي سفيان لما مات أخوه يزيد بالشام، وكان يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص مع أبي عبيدة بن الجرَّاح وخالد بن الوليد، فلمَّا تُوُفِّي يزيد بن أبي سفيان ولَّى عمرُ بن الخطاب معاويةَ مكانه، وعمر لم يكن تأخذه في الله لومة لائم، وهو ليس ممَّن يحابي في الولاية، ولا كان ممَّن يحب أبا سفيان أباه، بل كان من أعظم الناس عداوة لأبي سفيان قبل الإسلام، حتى إنه لما جاء به العباس يوم فتح مكة كان عمر حريصًا على قتله، حتى جرى بينه وبين العباس نوع من المخاشنة بسبب بغض عمر لأبي سفيان، فتولية عمر لابنه ليس لها سببٌ دنيوي، ولولا استحقاقه للإمارة لما أمَّره.

ثم إنه بقي في الشام عشرين سنة أميرًا، وعشرين سنة خليفة، ورعيته من أشد الناس محبة وموافقة له، وهو من أعظم الناس إحسانًا إليهم وتأليفًا لقلوبهم، حتى قاتلوا معه علي بن أبي طالب، وصابروا عسكره إلى أن قاوموهم وغلبوهم، وعليٌّ أفضل منه وأعلى درجة، وهو أَوْلَى بالحق منه باتِّفاق الناس، وعسكر معاوية يعلمون أن عليًّا أفضل وأحق بالأمر منه، ولا ينكر ذلك منهم إلا معانِد أو مَن أعمى الهوى قلبه، ولم يكن معاوية قبل تحكيم الحكمين يدَّعي الأمر لنفسه ولا يتسمى بأمير المؤمنين، وإنما ادَّعى ذلك بعد حكم الحكمين، وكان غير واحد من عسكر معاوية يقول له: لماذا نقاتل معك عليًّا وليس لك سابقته ولا فضله ولا صهره، وهو أَوْلَى بالأمر منك؟ فيعترف لهم معاوية بذلك.

لكن قاتلوا مع معاوية لظنِّهم أن عسكر علي فيهم ظَلَمَة يعتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان، وأنهم يقاتلونهم دفعًا لصيالهم عليهم وقتال الصائل جائز؛ ولهذا لم يبدؤوهم بالقتال حتى بدأ هم أولئك.

ولهذا قال الأشتر النخعي: إنهم ينصرون علينا؛ لأنا نحن بدأناهم بالقتال، وعلي ﷺ كان عاجزًا عن قَهْر الظلمة من العسكرَين، ولم يكن أعوانه يوافقونه على ما يأمر به، وأعوان معاوية يوافقونه، وكان يرى أن القتال يحصل به المطلوب فما حصل به إلا ضد المطلوب.

وكان في معسكر معاوية مَن يتَّهم عليًّا بأشياء من الظلم هو بريء منها، وطالب الحق من عسكر معاوية يقول: لا يمكننا أن نبايع إلا مَن يعدل علينا ولا يظلمنا، ونحن إذا بايعنا عليًّا ظلَمَنا عسكرُه

كما ظلموا عثمان، وعليٌّ إما عاجز عن العدل علينا أو غير فاعل لذلك، وليس علينا أن نبايع عاجزًا عن العدل علينا ولا تاركًا له.

فأئمَّة السنة يعلمون أنه ما كان القتال مأمورًا به ولا واجبًا ولا مستحبًّا، ولكن يعذرون مَن اجتهد فأخطأ.

وأما قوله: "وكان من المؤلَّفة قلوبهم"، فنعَم وكثير من الطلَقاء، بل كلهم من المؤلفة قلوبهم؛ كالحارث بن هشام، وابن أخيه عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وحكيم بن حزام، وهؤلاء من خِيَار المسلمين والمؤلَّفة قلوبهم غالبهم حَسُن إسلامهم، وكان الرجل منهم يسلِم أول النهار رغبةً منه في الدنيا، فلا يجيء آخر النهار إلا والإسلام أحب إليه ممَّا طلعت عليه الشمس".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "المنهاج" أيضًا ج ٢ ص ٢١٤: "وأما قول الرافضي: "وسموه كاتب الوحي ولم يكتب له ولا كلمة واحدة من الوحي، وإنما كان يكتب له رسائل"، وقوله: "إن كُتَّاب الوحي كانوا بضعة عشر أخصهم وأقربهم عليه علي"، ولا ريب أن عليًّا كان ممَّن يكتب له أيضًا كما كتب الصلح بينه وبين المشركين عام الحديبية، ولكن كان يكتب له أبو بكر وعمر أيضًا، ويكتب له زيد بن ثابت بلا ريب؛ ففي الصحيحين أن زيد بن ثابت لما نزلت: ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النِّسَاء: ٩٥]، كتبها له[٤٨]، وكتب له أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وعامر بن فهيرة وعبدالله بن الأرقم، وأبي بن كعب وثابت بن قيس، وخالد بن سعيد بن العاص، وحنظلة بن الربيع الأسدي وزيد بن ثابت ومعاوية، وشرحبيل بن حسنة – رضي الله عنهم.

وأما قوله: "إن معاوية لم يزل مشركًا مُدَّة كون النبي ﷺ مبعوثًا"، فيقال: لا ريب أن معاوية وأباه وأخاه وغيرهم أسلموا عام فتح مكة قبل موت النبي ﷺ بنحوٍ من ثلاث سنين، فكيف يكون مشركًا مُدَّة المبعث؟! ومعاوية ﷺ كان حين بعث النبي – صلى الله عليه وسلم – صغيرًا، كانت هند ترقصه، ومعاوية ﷺ أسلم مع مسلمة الفتح مثل أخيه يزيد، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وأبي سفيان بن حرب، وهؤلاء كانوا قبل إسلامهم أعظم كفرًا ومحاربة للنبي ﷺ من معاوية؛ فصفوان وعكرمة وأبو سفيان كانوا مقدَّمين للكفار يوم أحد، ورؤوس الأحزاب في غزوة الخندق، ومع هذا كان سهيل وصفوان وعكرمة من أحسن الناس إسلامًا، واستُشْهِدوا – رضي الله عنهم – يوم اليرموك، ومعاوية لم يُعْرَف له قبل الإسلام أذًى للنبي ﷺ لا بيَدٍ ولا بلسان، فإذا كان مَن هو أعظم معاداة للنبي ﷺ من معاوية قد حَسُن إسلامه وصار ممَّن

---

٤٨ أخرجه البخاري (٤٥٩٢) و(٤٥٩٣).

يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فما المانع أن يكون معاوية ﷺ كذلك؟! وكان من أحسن الناس سيرة في ولايته، وهو ممن حسن إسلامه، ولولا محاربته لعلي ﷺ وتوليه الملك لم يذكره أحد إلا بخير، كما لم يذكر أمثاله إلا بخير، وهؤلاء مسلمة الفتح معاوية ونحوه قد شهدوا مع النبي ﷺ عِدَّة غزوات؛ كغزوة حنين، والطائف، وتبوك، فله من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله ما لأمثاله، فكيف يكون هؤلاء كفارًا، وقد صاروا مؤمنين مجاهدين تمام سنة ثمان وتسع وعشر وبعض سنة إحدى عشرة؟! فإن مكة فُتِحت باتِّفاق الناس في شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة، والنبي ﷺ باتِّفاق الناس توفي في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة، والناس كلهم كانوا كفارًا قبل إيمانهم بما جاء به النبي ﷺ وكان فيهم مَن هو أشد عداوة للنبي ﷺ من معاوية، وأسلم وحَسُن إسلامه؛ كأبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، ابن عم رسول الله ﷺ كان من أشد الناس بغضًا للنبي ﷺ وهجاء له قبل الإسلام.

وأما معاوية ﷺ فكان أبوه شديدَ العداوة للنبي ﷺ وكذلك أمه حتى أسلمت فقالت: والله يا رسول الله ما كان على وجه الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلُّوا من أهل خبائك، وما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزُّوا من أهل خبائك؛ أخرجه البخاري٤٩.

وفيهم أنزل الله – تعالى –: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧]، فإن الله جعل بين النبي ﷺ وبين الذين عادوه – كأبي سفيان وهند وغيرهما – مودة، والله قدير على تبديل العداوة بالمودة، وهو غفور له بتوبتهم من الشرك، رحيم بالمؤمنين وقد صاروا من المؤمنين".

وفي فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – ج ٤ ص ٤٥٣ جواب لسؤال عن إسلام معاوية بن أبي سفيان متى كان؟ وهل كان إيمانه كإيمان غيره أم لا؟ وما قيل فيه غير ذلك، فأجاب: "إيمان معاوية بن أبي سفيان ﷺ ثابت بالنقل المتواتر، وإجماع أهل العلم على ذلك كإيمان أمثاله ممَّن آمن عام فتح مكة مثل: أخيه يزيد بن أبي سفيان، ومثل سهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وأبي أسيد بن أبي العاص بن أمية، وأمثال هؤلاء.

فإن هؤلاء يسمَّون "الطلقاء"، فإنهم آمنوا عام فتح النبي ﷺ مكة قهرًا، وأطلقهم ومنَّ عليهم، وأعطاهم وتألَّفهم، وقد روي أن معاوية بن أبي سفيان أسلم قبل ذلك وهاجر، كما أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة الحجبي قبل فتح مكة وهاجر إلى المدينة، فإن كان هذا صحيحًا فهذا من المهاجرين، وأمَّا إسلامه عام الفتح مع مَن ذكر، فمتَّفق عليه بين العلماء،

٤٩ أخرجه البخاري (٣٨٢٥) معلقًا مجزومًا، وقال الحافظ "الفتح" (١٧٥/٧): وقد وصله البيهقي أيضًا من طريق أبو الموجه عن عبدان، اهـ.

سواء كان أسلم قبل ذلك أو لم يكن إسلامه إلا عام فتح مكة، ولكن بعض الكذَّابين زعم أنه عيَّر أباه بإسلامه، وهذا كذب بالاتفاق من أهل العلم بالحديث.

وهؤلاء المذكورون من أحسن الناس إسلامًا وأحمدهم سيرة، لم يتَّهموا بسوء، ولم يتَّهمهم أحدٌ من أهل العلم بنفاق كما اتُّهم غيرهم، بل ظهر منهم من حسن الإسلام وطاعة الله ورسوله، وحب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله، وحفظ حدود الله – ما دلَّ على حسن إيمانهم الباطن وحسن إسلامهم، ومنهم مَن أمَّره النبي ﷺ واستعمله نائبًا له، كما استعمل عتاب بن أسيد أميرًا على مكة نائبًا له، وكان من خيار المسلمين.

وقد استعمل النبي ﷺ أبا سفيان بن حرب أبا معاوية على نجران نائبًا له، وتوفي النبي ﷺ وأبو سفيان عامله على نجران.

وكان معاوية أحسن إسلامًا من أبيه باتِّفاق أهل العلم، كما أن أخاه يزيد بن أبي سفيان كان أفضل منه ومن أبيه، وكان يزيد بن أبي سفيان على الشام إلى أن ولي عمر فمات يزيد بن أبي سفيان، فاستعمل عمر معاوية مكان أخيه يزيد، وبقي معاوية على ولايته تمام خلافته، وعمر ورعيَّته تشكره وتشكر سيرته فيهم، وتُوَاليه وتحبه؛ لما رأوه من حلمه وعدله، حتى إنه لم يشكُه منهم مشتكٍ ولا تظلَّمه منهم متظلِّم.

ويزيد بن معاوية ليس من أصحاب النبي ﷺ وإنما وُلِد في خلافة عثمان، وإنما سماه يزيد باسم عمه من الصحابة.

وقد شهد معاوية وأخوه يزيد، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، وغيرهم من مسْلِمة الفتح – مع النبي ﷺ غزوة حنين، ودخلوا في قوله – تعالى –: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]، وكانوا من المؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم مع النبي – صلى الله عليه وسلم.

وهؤلاء المذكورون دخلوا في قوله – تعالى –: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠]، فإن هؤلاء الطُّلَقاء مسلمة الفتح هم ممَّن أنفق من بعد الفتح وقاتل، وقد وعدهم الله الحسنى؛ فإنهم أنفقوا بحنين والطائف وقاتلوا فيهما – رضي الله عنهم".

وقال شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية في رسالته "الوصية الكبرى"[٥٠]: "وقد اتَّفق أهل السنة والجماعة على ما تواتر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها

٥٠ ضمن "مجموعة رسائل ابن تيمية": ج ١ ص ٢٩٦– ٣٠٣ المطبوعة سنة ١٣٢٣هـ بالقاهرة.

أبو بكر ثم عمر – رضي الله عنهما – واتفق أصحاب رسول الله ﷺ على بيعة عثمان بعد عمر – رضي الله عنهما – وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم تصير ملكًا))٥١، وقال ﷺ: ((عليكم بسنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي، تمسَّكوا بها، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة))٥٢.

وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ آخر الخلفاء الراشدين المهديين.

وقد اتَّفق عامَّة أهل السنة من العلماء والعبَّاد والأمراء والأجناد على أن يقولوا: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي – رضي الله عنهم.

ودلائل ذلك وفضائل الصحابة كثيرٌ ليس هذا موضعه، وكذلك نؤمن بالإمساك عما شجر بينهم، ونعلم أن بعض المنقول في ذلك كذب، وهم كانوا مجتهدين إمَّا مصيبين لهم أجران، أو مثابين على عملهم الصالح مغفور لهم خطؤهم، وما كان لهم من السيئات وقد سبق لهم من الله الحسنى فإن الله يغفرها لهم؛ إما بتوبة أو بحسنات ماحية، أو مصائب مكفِّرة، أو غير ذلك فإنهم خير قرون هذه الأمة؛ كما قال ﷺ: ((خير القرون قرني الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم))٥٣.

وهذه خير أمة أخرجت للناس.

ونعلم مع ذلك أن علي بن أبي طالب ﷺ كان أفضل وأقرب إلى الحق من معاوية وممَّن قاتله معه؛ لما ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: ((تمرق مارقةٌ على حين فرقة من المسلمين تقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق))٥٤.

وفي هذا الحديث دليلٌ على أنه مع كل طائفة حق، وأن عليًّا ﷺ أقرب إلى الحق.

وأمَّا الذين قعدوا عن القتال في الفتنة؛ كسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وغيرهما – رضي الله عنهم – فاتَّبعوا النصوص التي سمعوها في ذلك عن القتال في الفتنة، وعلى ذلك أكثر أهل الحديث.

---

٥١ أخرجه أحمد، والترمذي (٢٢٢٦)، وأبو داود (٤٦٤٧) من حديث سفينة ☐ وقال الترمذي: "وهذا حديث حسن".

٥٢ أخرجه أحمد (١٢٧/١٢٦/٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٨)، وابن ماجة (٤٣)، والدارمي (٤٤/١) من حديث العرباض بن سارية ☐ وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح".

٥٣ أخرجه أحمد (٢٦٧/٤ و٢٧٧)، وابن أبي عاصم في "السنة" (١٤٧٧)، وابن حبان (٦٧٢٧) من حديث النعمان بن بشير ☐ بنحوه، وقال الهيثمي في "المجمع" (١٧/١٠): "رواه أحمد والبزار والطبراني في "الكبير" و"الأوسط" وفي طرقهم عاصم بن بهدلة وهو حسن الحديث وبقية رجاله رجال الصحيح، أهـ، وأخرجه مسلم (٢٥٣٣) من حديث عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه بنحوه.

٥٤ أخرجه البخاري (٣٣٧٠) و(٤٧٩٧) و(٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة – رضي الله عنه.

وكذلك آل بيت رسول الله ﷺ لهم من الحقوق ما يجب رعايتها، فإن الله جعل لهم حقًّا في الخمس والفيء، وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله ﷺ فقال لنا: ((قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد))، وآل محمد هم الذين حرمت عليهم الصدقة، هكذا قال الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما من العلماء - رحمهم الله - فإن النبي ﷺ قال: ((إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد))٥٥.

وقد قال الله - تعالى - في كتابه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وحرَّم الله عليهم الصدقة؛ لأنها أوساخ الناس، وقد قال بعض السلف: حبُّ أبي بكر وعمر إيمان وبغضهما نفاق.

وفي المسانيد والسنن: أن رسول الله ﷺ قال للعباس لما شكا إليه جفوةَ قوم لهم قال: ((والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم من أجلي))٥٦.

وفي "الصحيح" عن النبي ﷺ أنه قال: ((إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى بني كنانة من بني إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم"٥٧، وقد كانت الفتنة لما وقعت بقتل عثمان وافتراق الأمة بعده صار قومٌ ممَّن يحب عثمان ويغلوا فيه ينحرف عن علي ﷺ مثلُ كثير من أهل الشام ممَّن كان إذ ذاك يسب عليًّا ﷺ ويبغضه.

وقوم ممَّن يحب عليًّا ﷺ ويغلو فيه ينحرف عن عثمان ﷺ مثل كثيرٍ من أهل العراق ممَّن كان يُبغض عثمان ويسبّه - رضي الله عنه.

ثم تغلَّظت بدعتهم بعد ذلك حتى سبُّوا أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - وزاد البلاء بهم حينئذ.

---

٥٥ أخرجه البخاري (١٤٩١)، ومسلم (١٠٦٩) من حديث أبي هريرة ☐ بنحوه، وفي الباب عن أبي رافع ☐ أخرجه أحمد (٨/٦ و١٠) وأبو داود (١٦٥٠)، والترمذي (٦٥٧)، والنسائي (١٠٧/٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصحَّحه أيضًا ابن خزيمة وابن حبان.

٥٦ أخرجه أحمد (٢٠٧/١) وفي سنده يزيد بن أبي زياد؛ قال أحمد: "ليس حديثه بذاك"، وأخرجه ابن ماجة (١٤٠) من طريق أخرى، وقال في الزوائد: "رجال إسناده ثقات إلا أنه قيل: رواية محمد بن كعب عن العباس مرسلة"، اهـ.

٥٧ أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

والسنة محبة عثمان وعلي جميعًا، وتقديم أبي بكر وعمر عليهما – رضي الله عنهم – لِمَا خصهما النبي ﷺ به من الفضائل التي سبقا بها عثمان وعليًّا جميعًا، وقد نهى الله في كتابه عن التفرُّق والتشتُّت وأمر بالاعتصام بحبله.

فهذا موضع يجب للمؤمن أن يتثبَّت فيه ويعتصم بحبل الله، فإن السنة مبناها على العلم والعدل والاتباع لكتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم.

فالرافضة لما كانت تسبُّ الصحابة، صار العلماء يأمرون بعقوبة من يسب الصحابة، ثم كفَّرت الصحابة وقالت عنهم أشياء قد ذكرنا حكمهم فيها في غير هذا الموضع.

ولم يكن أحدٌ إذ ذاك يتكلَّم في يزيد بن معاوية، ولا كان الكلام فيه من الدين، ثم حدثت بعد ذلك أشياء فصار قوم يظهرون لعنة يزيد بن معاوية، وربما كان غرضهم بذلك التطرُّق إلى لعنة غيره، فكره أكثر أهل السنة لعنة أحد بعينه، فسمع بذلك قومٌ ممَّن كان يتسنن، فاعتقد أن يزيد كان من كبار الصالحين وأئمة الهدى، وصار الغلاة فيه على طرفي نقيض؛ هؤلاء يقولون: إنه كافر زنديق وأنه قتل ابن بنت رسول الله ﷺ وقتل الأنصار وأبناءهم بالحرة؛ ليأخذ بثأر أهل بيته الذين قُتِلوا كفارًا؛ مثل: جده لأمه عتبة بن ربيعة، وخاله الوليد، وغيرهما، ويذكرون عنه من الاشتهار بشرب الخمر وإظهار الفواحش وأشياء.

وأقوام يعتقدون أنه كان إمامًا عادلاً هاديًا مهديًّا، وأنه كان من الصحابة أو أكابر الصحابة، وأنه كان من أولياء الله – تعالى – وربما اعتقد بعضُهم أنه كان من الأنبياء، ويقولون: مَن وقف في يزيد وقفه الله على نار جهنم.

ويروون عن الشيخ حسن بن عدي: أنه كان كذا وكذا وليًّا وقفوا على النار لقولهم في يزيد، وفي زمن الشيخ حسن زادوا أشياء باطلة نظمًا ونثرًا، وغلوا في الشيخ عدي وفي يزيد بأشياء مخالفة لما كان عليه الشيخ عدي الكبير – قدَّس الله روحه – فإن طريقته كانت سليمة لم يكن فيها من هذه البِدَع، وابتلوا بروافض عادوهم وقتلوا الشيخ حسنًا، وجرت فتن لا يحبها الله ولا رسوله.

وهذا الغلو في يزيد من الطرفين خلاف لما أجمع عليه أهل العلم بالإيمان، فإن يزيد بن معاوية وُلِد في خلافة عثمان بن عفان ﷺ ولم يدرك النبي ﷺ ولا كان من الصحابة باتِّفاق العلماء، ولا كان من المشهورين بالدين والصلاح، وكان من شبان المسلمين، ولا كافرًا ولا زنديقًا، وتولَّى بعد أبيه على كراهة من بعض المسلمين ورضًا من بعضهم، وكان فيه شجاعة وكرم، ولم يكن مظهرًا للفواحش – كما يحكي عنه خصومه.

وجرت في إمارته أمورٌ عظيمة؛ أحدها: مقتل الحسين ﷺ وهو لم يأمر بقتل الحسين، ولا أظهر الفرح بقتله، ولا نكت بالقضيب على ثناياه ﷺ ولا حمل رأس الحسين ﷺ إلى الشام، لكن أمر بمنع الحسين ﷺ وبدَفْعِه عن الأمر ولو كان بقتاله، فزاد النوَّاب على أمره وحضَّ الشمر بن ذي الجَوْشَن على قتله لعبيد الله بن زياد، فاعتدى عليه عبيدالله بن زياد فطلب منهم الحسين ﷺ: أن يجيء إلى يزيد، أو يذهب إلى الثغر مرابطًا، أو يعود إلى مكة، فمنعوه ﷺ إلا أن يستأسر لهم، وأمر عمر بن سعد بقتاله، فقتلوه مظلومًا مع طائفة من أهل بيته – رضي الله عنه.

وكان قتله ﷺ من المصائب العظيمة، فإن قتْل الحسين وقتْل عثمان قبله كانا من أعظم أسباب الفتن في هذه الأمة، وقتلتهما من شرار الخلق عند الله، ولما قَدِم أهله – رضي الله عنهم – على يزيد بن معاوية أكرمهم وسيَّرهم إلى المدينة، وروي عنه أنه لعن زيادًا على قتله.

وقال: كنت أرضى من طاعة أهل العراق بدون قتل الحسين، لكنه مع هذا لم يظهَر منه إنكار قتله، والانتصار له والأخذ بثأره، كان هذا الواجب عليه، فصار أهل الحق يلومونه على تركه للواجب مضافًا إلى أمور أخرى، وأما خصومه فيزيدون عليه من الفرية أشياء.

وأما الأمر الثاني، فإن أهل المدينة النبوية نقضوا بيعته، وأخرجوا نوَّابه وأهله، فبعث إليهم جيشًا وأمره إذا لم يطيعوه بعد ثلاث أن يدخلها بالسيف ويبيحها ثلاثًا؛ فصار عسكره في المدينة النبوية ثلاثًا يقتلون وينهبون ويغتصبون الفروج المحرمة، ثم أرسل جيشًا إلى مكة المشرفة فحاصروا مكة وتُوُفِّي يزيد وهم محاصِرون مكة، وهذا من العدوان الذي فُعِل بأمره.

ولهذا كان الذي عليه معتقد أهل السنة وأئمَّة الأمَّة أنه لا يُسَبُّ ولا يُحَبُّ، قال صالح بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: إن قومًا يقولون: إنهم يحبون يزيد، قال: يا بني، وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر؟! فقلت: يا أبت، فلماذا لا تلعنه؟ قال: يا بني، ومتى رأيت أباك يلعن أحدًا.

وروي عنه أنه قيل له: تكتب الحديث عن يزيد بن معاوية؟ فقال: لا، ولا كرامة، أَوَلَيْسَ هو الذي فعل بأهل المدينة ما فعل.

فيزيد عند علماء أئمَّة المسلمين مِلِكٌ من الملوك، لا يحبونه محبةَ الصالحين وأولياء الله ولا يسبُّونه، فإنهم لا يبيحون لعنةَ المسلم المعيَّن؛ لما روى البخاري في "صحيحه" عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلاً كان يدعى حمارًا وكان يكثِر شرب الخمر، وكان كلما أُتِي به إلى النبي ﷺ ضربه فقال رجلٌ: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: ((لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله))[٥٨]،

٥٨ أخرجه البخاري (٦٧٧٧) و(٦٧٨٠) و(٦٧٨١).

ومع هذا فطائفة من أهل السنة يجيزون لعنه؛ لأنهم يعتقدون أنه فعَل من الظلم ما يجوز لعنة فاعله، وطائفة أخرى ترى محبته؛ لأنه مسلم تولى على عهد الصحابة وبايَعه الصحابة، ويقولون: لم يصحَّ عنه ما نقل عنه، وكانت له محاسن ولم يصحَّ عنه ما نقل عنه أو كان مجتهدًا فيما فعله.

والصواب: هو ما عليه الأئمَّة من أنه لا يخصُّ بمحبَّة ولا يُلْعَن، ومع هذا فإن كان فاسقًا أو ظالمًا فالله يغفر للفاسق والظالم، لاسيما إذا أتى بحسنات عظيمة.

وقد روى البخاري في "صحيحه" عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ قال: ((أوَّل جيش يغزو القسطنطينية مغفور له))[٥٩]، وأوَّل جيش غزاها كان أميرهم يزيد بن معاوية، وكان معه أبو أيوب الأنصاري ﷺ وقد يشتبه يزيد بن معاوية بعمه يزيد بن أبي سفيان، فإن يزيد بن أبي سفيان كان من الصحابة، وكان من خِيَار الصحابة، وهو خير آل حرب، وكان أحد أمراء الشام الذين بعثهم أبو بكر ﷺ في فتوح الشام، ومشى أبو بكر في ركابه يوصيه مشيِّعًا له فقال له: يا خليفة رسول الله، إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال: لستُ براكب ولستَ بنازل، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله، فلمَّا تُوُفِّي بعد فتوح الشام في خلافة عمر ولّى عمر ﷺ مكانه أخاه معاوية، ووُلِد له يزيد في خلافة عثمان ﷺ وأقام معاوية بالشام إلى أن وقع ما وقع.

فالواجب الاقتصار في ذلك، والإعراض عن ذكر يزيد بن معاوية وامتحان المسلمين به؛ فإن هذا من البِدَع المخالفة لأهل السنة والجماعة، فإنه بسبب ذلك اعتقد قومٌ من الجُهَّال أن يزيد بن معاوية من الصحابة، وأنه من أكابر الصالحين وأئمة العدل، وهو خطأ بيِّن".

قال الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" ج ٢ ص ١٢٠: "وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد الصيدلاني، ثنا السَّرِيُّ بن عاصم، ثنا عبدالله بن يحيى بن أبي كثير، عن أبيه، عن هشام بن عروة، عن عائشة قالت: لما كان يوم أم حبيبة من النبي ﷺ دقَّ الباب داقٌّ، فقال النبي ﷺ: ((انظروا مَن هذا؟))، قالوا: معاوية، قال: ((ائذنوا له))، فدخل وعلى أذنه قلمٌ يخطُّ به فقال: ((ما هذا القلم على أذنك يا معاوية؟))، قال: قلمٌ أعددتُه لله ولرسوله، فقال له: ((جزاك الله عن نبيِّك خيرًا، والله ما استكتبتك إلا بوحيٍ من الله، وما أفعل من صغيرة ولا كبيرة إلا بوحي من الله، كيف بك لو قمَّصك الله قميصًا؟))؛ يعني: الخلافة، فقامت أم حبيبة فجلست بين يديه وقالت: يا رسول الله، وإن الله مقمِّصه قميصًا؟ قال: ((نعم، ولكن فيه هنات وهنات))، فقالت: يا رسول

---

٥٩ أخرجه البخاري (٢٩٢٤)، وانظر: "الفتح" (٦/١٢٠).

الله، فادعُ الله له فقال: ((اللهم اهده بالهدى، وجنِّبه الردى، واغفر له في الآخرة والأولى))، قال الطبراني: "تفرَّد به السَّرِيُّ، عن عاصم، عن عبدالله بن يحيى بن أبي كثير، عن هشام"٦٠.

ثم قال ابن كثير: "وقد أورد ابن عساكر بعد هذا أحاديث كثيرة موضوعة، والعجَب منه مع حفظه واطِّلاعه كيف لا ينبه عليها وعلى نكارتها وضعف رجالها؟! والله الموفِّق للصواب".

وقال ابن أبي حاتم في "العلل" ج ٢ ص ٣٦٢: "سألت أبي عن حديث رواه الوليد بن مسلم، عن سعيد بن عبدالعزيز، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس، عن عبدالرحمن بن عميرة الأزدي: أنه سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول، وذكر معاوية فقال: ((اللهم اجعله هاديًا مهديًّا واهدِ به))، قال أبي: روى مروان وأبو مسهر، عن سعيد بن عبدالعزيز، عن ربيعة بن يزيد، عن ابن أبي عميرة، عن معاوية: قال لي النبي ﷺ قلت لأبي: فهو ابن أبي عميرة أو ابن عميرة؟ قال: لا، إنما هو ابن أبي عميرة، فسمعت أبي يقول: غلِط الوليد؛ وإنما هو ابن أبي عميرة، ولم يسمع من النبي ﷺ هذا الحديث".

وذكر ابن كثير في "البداية والنهاية" بعض روايات حديث: ((اللهم اجعله هاديًا مهديًّا واهدِ به)).

ثم قال: "وقد اعتنى ابن عساكر بهذا الحديث وأطنب فيه وأطيب وأطرب، وأفاد وأجاد وأحسن الانتقاد، فرحمه الله..."، ثم أورد عن ابن عساكر قوله: "وأصح ما رُوِي في فضل معاوية حديث أبي جمرة عن ابن عباس أنه كان كاتب النبي ﷺ منذ أسلم"؛ أخرجه مسلم في "صحيحه"، وبعده حديث العرباض: ((اللهم علِّم معاوية الكتاب))٦١، وبعده حديث ابن أبي عميرة: ((اللهم اجعله هاديًا مهديًّا))".

قال ابن كثير: "وقد قال البخاري في كتاب المناقب: (ذكْر معاوية بن أبي سفيان): حدثنا الحسن بن بشر، ثنا المعافى، عن عثمان بن الأسود، عن ابن أبي مليكة قال: "أَوْتَر معاوية بعد العشاء بركعة وعنده مولًى لابن عباس، فأتى ابن عباس فقال: أَوْتَر معاوية بعد العشاء بركعة، فقال: دَعْه فإنه قد صحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم"٦٢.

قال في "أسنى المطالب": "خبر: ((كل الصيد في جوف الفرا)) حديث مرسل، راويه غريب، قيل لأبي سفيان، والفرا: حمار الوحش".

---

٦٠ أخرجه الطبراني في "الأوسط" (١٨٥٩) وأورده الهيثمي في "المجمع" (٥٩٤) وقال: رواه الطبراني في "الأوسط"، وفيه السري بن عاصم، وهو ضعيف.

٦١ أورده الهيثمي في "المجمع" (٥٩٤/٩) وقال: "رواه البزار وأحمد في حديث طويل، والطبراني، وفيه: الحارث بن زياد؛ ولم أجد مَن وثَّقه، ولم يروِ عنه إلا يونس بن سيف، وبقية رجاله ثقات وفي بعضهم خلاف"، اهـ.

٦٢ "البداية والنهاية": (١٢١/٨- ١٢٢).

وقال العجلوني في كتابه "كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس": "((كل الصيد في جوف الفرا))؛ رواه الرامهرمزي في "الأمثال"، عن عاصم الليثي، قال: أَذِن رسول الله ﷺ لقريش وأخَّر أبا سفيان، ثم أذن له فقال: ما كدت أن تأذن لي حتى كدت أن تأذن لحجارة الجلهمتين قبلي، فقال: وما أنت وذاك يا أبا سفيان إنما أنت كما قال الأول، وذكره، وسنده جيد لكنه مرسل، ونحوه عند العسكري، وقال: في جوف أو جنب".

قال في "المقاصد": "وقد أفردت فيه جزءًا فيه نفائس"؛ انتهى، قال في "القاموس" في باب الهمزة: "الفَرَا كجَبَل وسَحَاب: حمار الوحش وفتيّه، والجمع فِرَاء وأَفْراء"، ثم قال: "((كل الصيد في جوف الفَرا))؛ أي: كله دونه، وقال في "الصحاح": الجمع فراء مثل جبل وجبال، ثم قال: وقد أبدلوا من الهمزة ألفًا فقالوا: نكحنا الفرا فسنرى" انتهى، والجلهمتان: تثنية الجلهمة بضم الجيم وفتحها حافَّة الوادي وناحيته.

وقال الدميري في "حياة الحيوان": "الفرا الحمار الوحش، والجمع الفراء؛ مثل جبل وجبال، وفي المثل: "كل الصيد في جوف الفرا" قاله ﷺ لأبي سفيان بن الحارث، وقيل لأبي سفيان بن حرب، وقال السهيلي: الصحيح أنه قاله لأبي سفيان بن حرب يتألَّفه به؛ وذلك لأنه استأذن النبي ﷺ فحُجِب قليلاً، ثم أذن له فلمَّا دخل قال للنبي ﷺ: ما كدت أن تأذن لي حتى كدت أن تأذن لحجارة الجلهمتين قبلي، فقال له النبي ﷺ: ((يا أبا سفيان أنت كما قيل: كل الصيد في جوف الفرا))، ثم قال: وأصل هذا المثل أن جماعة ذهبوا للصيد، فصاد أحدهم ظبيًا، والآخر أرنبًا، والآخر حمار وحش، فاستبشر الأوَّلان بما نالا، فقاله الثالث؛ يعني: أن ما رُزقته يشتمل على ما عندكما لأنه أعظم، ثم اشتهر هذا المثل في كل شيء كان جامعًا لغيره".

وفي ص ٢٧٠- ٢٧١ يقول الأبياري: "ويروون عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: كنت عند النبي ﷺ فقال: ((يطلع عليكم من هذا الفج رجل يموت على غير ملتي))، قال: فطلع معاوية فقال النبي ﷺ: ((هو هذا)).

وروا أن النبي ﷺ دعا لمعاوية فقال: ((اللهم اهدِه هديه، وعلمه الكتاب والحساب، وقِهِ العذاب))٦٣.

وتروي عائشة تقول: أتيت النبيَّ ﷺ في منزل أم حبيبة في يومها فدقَّ معاوية الباب فأذن له، فدخل وعلى أذنه قلم، فقال النبي ﷺ: ((ما هذا على أذنك؟))، قال: قلم أعددته لله وللرسول، فقال النبي ﷺ: ((جزاك الله عن نبيك خيرًا، والله ما استكتبتك إلا من وحي السماء))٦٤.

---

٦٣ تقدم.

ويروي الحسن قال: قال النبي ﷺ: ((إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه))[٦٥]، فتركوا أمره فلم يفلحوا ولم ينجحوا".

وفي ص ١١٨ يقول المؤلف: "ويروى أن النبي ﷺ دعا لمعاوية فقال: ((اللهم اجعله هاديًا مهديًّا)).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "المنهاج" ج ٢ ص ٢١٨: "وأما قوله: وقد روى عبدالله بن عمرو قال: أتيتُ النبي ﷺ فسمعتُه يقول: ((يطلع عليكم رجلٌ يموت على غير سنتي))، فطلع معاوية وقام النبي ﷺ خطيبًا فأخذ معاوية بيد ابنه يزيد وخرج ولم يسمع الخطبة، فقال النبي ﷺ: ((لعن الله القائد والمقود))؛ أي يوم يكون للأمة مع معاوية ذي الإساءة.

فالجواب أن يقال: (أولاً): نحن نطالب بصحَّة هذا الحديث؛ فإن الاحتجاج بالحديث لا يجوز إلا بعد ثبوته، ونحن نقول هذا في مقام المناظرة، وإلا فنحن نعلم قطعًا أنه كذب، ويقال: (ثانيًا): هذا الحديث من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، ولا يوجد في شيء من دواوين الحديث التي يرجع إليها في معرفة الحديث ولا إسناد معروف، وهذا المحتجُّ به لم يذكر له إسنادًا.

ثم من جهله أن يروي مثل هذا عن عبدالله بن عمرو، وعبدالله بن عمرو من أبعد الناس عن ثلب الصحابة وأروى الناس لمناقبهم، وقوله في مدح معاوية ثابت عنه؛ حيث يقول: ما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية، قيل له: ولا أبو بكر وعمر؟ فقال: كان أبو بكر وعمر خيرًا منه، وما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية.

قال أحمد بن حنبل: السيد الحليم؛ يعني: معاوية، وكان معاوية كريمًا حليمًا، ثم إنَّ خُطَب النبي ﷺ لم تكن واحدة، بل كان يخطب في الجُمَع والأعياد والحج وغير ذلك، ومعاوية وأبوه يشهدان الخطب كما يشهدها المسلمون كلهم، أفَتَراهما في كل خطبة كانا يقومان ويمكَّنان من ذلك؟

هذا قدْحٌ في النبي ﷺ وفي سائر المسلمين؛ إذ يمكنان اثنين دائمًا يقومان ولا يحضران الخطبة ولا الجمعة، وإن كانا يشهدان كل خطبة، فما بالهما يمتنعان عن سماع خطبة واحدة قبل أن يتكلَّم بها؟! ثم من المعلوم من سيرة معاوية أنه كان من أحلم الناس وأصبرهم على مَن يؤذيه، وأعظم الناس تأليفًا لِمَن يعاديه، فكيف ينفر عن رسول الله ﷺ مع أنه أعظم الخلق مرتبة في الدين والدنيا، وهو محتاج إليه في كل أموره، فكيف لا يصبر على سماع كلامه؟! وهو بعد الملك يسمع

---

٦٤ تقدم.

٦٥ أورده الذهبي في "ميزان الاعتدال" (٢/٣٨٠) من تأكيد عباد بن يعقوب، وهو من غلاة الشيعة ورؤوس البِدَع، كما قال الذهبي عنه.

كلام مَن يشتمه في وجهه، فلماذا لم يسمع كلام النبي – صلى الله عليه وسلم؟! وكيف يتَّخذ النبي ﷺ كاتبًا مَن هو في هذه الحالة؟!

وقوله: إنه أخذ بيد ابنه يزيد، فمعاوية لم يكن له ابن اسمه يزيد، وأما ابنه يزيد الذي تولى الملك وجرى في خلافته ما جرى، فإنما وُلِد في خلافة عثمان باتِّفاق أهل العلم، ولم يكن لمعاوية ولد على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم.

قال الحافظ أبو الفضل بن ناصر: خطب معاوية ﷺ في زمن رسول الله ﷺ فلم يزوَّج؛ لأنه كان فقيرًا٦٦، وإنما تزوَّج في زمن عمر ﷺ ووُلِد له يزيد في زمن عثمان بن عفان ﷺ سنة سبع وعشرين من الهجرة.

ثم نقول (ثالثًا): هذا الحديث يمكن معارضته بمثله من جنسه مما يدل على فضل معاوية – رضي الله عنه".

قال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب "الموضوعات": "قد تعصَّب قومٌ ممَّن يدَّعي السنة فوضعوا في فضل معاوية ﷺ أحاديث ليغيظوا الرافضة، وتعصَّب قومٌ من الرافضة فوضعوا في ذمِّه أحاديث، وكلا الفريقين على الخطأ القبيح".

وقال الشوكاني في كتابه "الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة": "حديث: ((إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاقتلوه))؛ رواه ابن عدي عن ابن مسعود مرفوعًا، وهو موضوع وفي إسناده عباد بن يعقوب، وهو رافضي وآخر كذَّاب.

وقال العقيلي: لا يصحُّ في هذا المتن شيء.

وقد رواه الخطيب عن جابر مرفوعًا بلفظ: فاقبلوه – بالباء الموحدة – وزاد: فإنه أمين مأمون، وأكثر إسناده مجاهيل كما قال الخطيب.

وقال ابن عدي: "هذا اللفظ مع بطلانه قد قرئ بالباء الموحدة ولا يصح أيضًا.

وفي كتاب "اللالىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة" للسيوطي أورد الحديث عن ابن مسعود مرفوعًا: "إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاقتلوه"، أخرجه ابن عدي ثم قال: موضوع، عباد رافضي، والحكم متروك كذاب.

وقد رواه ابن عدي عن أبي سعيد مرفوعًا بسندين، في أحدهما مجالد، وفي الآخر علي بن زيد بن جدعان، قال مجالد: وعلي ليس بشيء.

---

٦٦ يدل على ذلك الحديث: ((... وأما معاوية فصعلوك لا مال له))؛ أخرجه مسلم (١٤٨٠) (٣٦).

ثم ذكر رواية عن العقيلي عن الحسن: "إذا رأيت معاوية على المنبر فاقتلوه"، وتعقب ذلك بقول أيوب وقد سأله جهاد بن زيد عن هذه الرواية فقال: كذب عمرو، وقال العقيلي: لا يصح في هذا المتن شيء.

وذكر رواية ابن طاهر في أطراف الكامل بسند فيه سفيان بن محمد الفزاري وجعفر بن محمد عن جماعة من أهل بدر ثم قال: ابن طاهر وجعفر وأبوه لم يدركا أحدًا من الصحابة المتأخرين، فكيف بأهل بدر؟! وسفيان الفزاري من أهل المصيصة يسرق حديث الناس ويروي عن الثقات المناكير... إلخ".

قال الشوكاني في كتابه "الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة" ص ٤٠٥:

"حديث أن جماعة من بني هاشم سألوا رسول الله ﷺ أن يحول الكتابة من معاوية فنزل الوحي باختياره - هو موضوع".

ونعود للأبياري في كتابه حيث يقول ص ١٩٥ عن معاوية وأهل الشام:

"ثورة صاخبة يريدها الوالي لا لشيء إلا ليصل إلى غرضه، ويريدها الناس لا لشيء إلا أنهم هيجوا فهاجوا".

ويقول ص ١٩٧ . ١٩٨:

"وكان على معاوية أن يستجيب لو أنه كان رجلاً من هؤلاء الرجال الذين يعملون لآخرتهم ودينهم؛ ولكنه كان رجلاً من رجال الدنيا يراها غنيمة لا تنال إلا بالدماء والأرواح والخلاف".

وفي ص ٢٠٩ وهو يتحدث عن علي ومعاوية ومن معهما:

"نسي القوم هذا كله وانقلبوا وحوشًا ضارية يأكل بعضهم بعضًا...".

ويقول ص ٢٣٢ . ٢٣٣:

"ولكن معاوية كان خادعًا وكان ماكرًا أراد أن يخدع الحسن، وأراد أن يبايع الحسن له، وأراد أن ينفض الناس من حول الحسن ويجتمعوا حوله، فإذا ما تم له ذلك رأى رأيه وأعطى ما يريد ومنع ما يريد".

هل معاوية خليفة أو ملك؟

ويقول ص ٢٦٤:

"وكما نال معاوية ملكه بالدهاء وبالتدبير، كان الحظ في جانبه إلى أمد كبير، ساير الحظ هذا التدبير ومكن الاثنان معًا لمعاوية أن ينشئ هذه الدولة الأموية التي كان هو أوَّل خليفة فيها،

بدأت خلافته على التحقيق بعد أن قُتِل علي – كرم الله وجهه – سنة أربعين وبقي خليفة إلى أن مات سنة ستين...".

وهنا نتساءل هل كان معاوية خليفةً أم ملكًا؟ في هذه الأسطر القليلة وردت عبارتان للمؤلف متناقضتان، فقد قال في أولاهما: "نال معاوية مُلْكَه بالدهاء"، وقال في أخراهما: "هو أول خليفة فيها..." إلخ.

أغلب الظن أن المؤلف لم يلاحظ الفرق بين العبارتين رغم بعد الشُّقَّة بينهما، ولولا ذلك لذكر رأيًا واحدًا، أو بيَّن وجهة نظره في ترجيح أحد الرأيين، وقد تكرَّر في كلامه أن معاوية مَلِكٌ، كما تكرَّر أنه خليفة، فأيهما هو يختار؟!

وفي كتاب "أخبار القضاة" ج ١ ص ١٢١ بسنده إلى محمد بن مسلم الزهري: أن مصعب بن عبدالرحمن بن عوف، ومعاذ بن عبيدالله التيمي، وأبا جعفونة بن شعوب الليثي – اتُّهموا بقتل ابن هبار أخي بني أسد، وكانوا أصابوه في الفتنة في زمان عثمان.

فلمَّا اجتمع الناس على معاوية ركب إليه عبدالله بن الزبير في دم ابن هبار، وركب عبدالرحمن بن أزهر في مصعب بن عبدالرحمن، فاجتمعا عند معاوية بالشام، فدخل ابن الزبير على معاوية فقام ابن أزهر فرجَّ باب معاوية رجًّا شديدًا، وقال: وا عجبًا يا معاوية! أتخلو بابن الزبير في دمائنا؟! فأذِن له معاوية فدخل فقال: إني والله ما خلوت بابن الزبير في دمائكم، ولكن خلوت به أسأله عن أموال أهل الحجاز، فقال: ثم تكلَّما في دم ابن هبار، قال معاوية لابن الزبير: تسمون قاتل صاحبكم ثم تحلفون خمسين يمينًا ثم نسلمه إليكم، فقال ابن الزبير: لا لعمر الله لا نحلف عليه؛ إلا أنه قد عرف أنه كان معهم وأنه قد وجد قتيلاً في مكانهم الذي اجتمعوا فيه، فقال معاوية لابن أزهر: فتحلفون خمسين يمينًا بالله أن ما ادَّعوا على صاحبكم من قِبَل هذا الرجل لباطل ثم تبرؤون فقال: لا والله ما كنا لنحلف عليه وما لنا بذلك من علم، فقال معاوية: فوالله ما أدري ما أصنع؟ أما أنت يا ابن الزبير، فلا تحلف على هؤلاء النفر الذين اتهمتهم فتستحق دمك، وأما أنت يا ابن أزهر فلا تحلف على براءة صاحبك فتبرئه؛ فوالله ما أجد إلا أن أرد هذه الأَيْمان الخمسين على هؤلاء الثلاثة الذين اتهمهم ثم يرونه، قال: فردَّها عليهم أثلاثًا، فكان معاوية أول مَن رد الأيمان ولم يكن قبل ذلك، كان إذا نقص من الخمسين رجل واحدٌ رُدَّت على الآخرين، فإذا نقص رجل واحد وضع الدية وعقل القتيل، قال مالك بن أنس: أوَّل مَن اتخذ قاضيًا معاويةُ بن أبي سفيان، كان الخلفاء قبل ذلك يباشرون كل شيء من أمور الناس بأنفسهم"[٦٧].

---

٦٧ من كتاب "أخبار القضاة": ج ١ ص ١١١.

والمراد أنهم يباشرون القضاء بأنفسهم في حاضرتهم لا فيما بعُد عنهم؛ لأن استقضاء عمر لشريح على الكوفة أشهر عند علمائهم من كل شهرة وحجة، وقد ولَّى عمر أيضًا كعب بن سور اللقيطي القضاء، فلم يزل قاضيًا حتى قُتِل عمر – رضي الله عنه.

وفي كتاب "سراج الملوك"؛ للطرطوشي ص ١٤٤– ١٤٥ بعنوان: (حلم معاوية وجوده): "ولما وفد عقيل بن أبي طالب على معاوية أمر له بمائة ألف درهم، فلمَّا أراد الانصراف رأى في الطريق جارية بأربعين ألف درهم فرجع إلى معاوية فأخبره، قال: وما تصنع بها؟ قال: تلد لي غلامًا فإن أغضبتَني يضرب مِفْرَقَك بالسيف، فأمر له بها فابتاعها فولدت له مسلم بن عقيل، ثم قدم مسلم الشام فابتاع منه معاوية ضيعة، فبلغ الحسين بن علي الخبر، فكتب إلى معاوية: إني لا أجيز بيع مسلم، فأرسل معاوية إلى مسلم فقال: هذا كتاب الحسين يأمر بردِّ المال فقال مسلم: أما دون أن أضرب مِفْرَقَك بالسيف فلا، فضحك معاوية وقال: والله لقد تهدَّدني أبوك بذلك قبل أن يشتري أمك، وسوغه المال، فقال الحسين: غلبنا معاوية حلمًا وجودًا.

ويقول ص ٢٧٣ عن معاوية: "ولكن هذا الرجل العظيم الذي نال منه أصحابه وهم من الصحابة فقرفوه[٦٨] بما يشينه في دينه، ومضى الرواة في أثرهم ينقلون عن الصحابة أيضًا أحاديث بعضها جاء في ذم هذا الرجل وخلعه من دينه، وموته على الكفر أو قريبًا من الكفر، هذا الرجل الذي لقي هذا من أصحابه من الصحابة يقرفونه بشيء على ألسنتهم، ويروون عن النبي ﷺ شيئًا آخر في تجريحه – قد لقي مَن انبرى للدفاع عنه يبرِّئه مما اتُّهم به، ويدفع عنه ما يجرحه ويشينه".

ونقول: إن كثيرًا مما يروى في ثَلْب معاوية ليس له سند صحيح، بل هو عند علماء الحديث من قبيل الأحاديث الموضوعة التي لا يحتج بها، وما يصح من ذلك فلمعاوية من الفضائل والحسنات الشيء الكثير، ويكفيه فضلاً صحبته رسول الله ﷺ وكونه أحد كتَبَة الوحي، وتولية الخليفة الراشد عمر بن الخطاب إياه ما كان يتولاه أخوه يزيد.

* * *

٦٨ أي: اتّهموه وذكروه بسوء ووقعوا فيه، انظر: القرف من "القاموس المحيط".

هند بنت عتبة

ويقول المؤلف ص ٦٥: "يحكون أنه لما كان يوم الفتح أتت هند الرسولَ في نسوة معها، وكان الرسول عندها نازلاً بالأبطح – أبطح مكة – لتبايعه معهن ويحكون أن هندًا تكلَّمت فقالت: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه لِتَنفعني رحمُك يا محمد؛ إني امرأة مؤمنة بالله مصدِّقة برسوله، ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة، فقال الرسول ﷺ: ((مرحبًا بك))، فقالت هند من بينهن: يا رسول الله نصافحك؟ فقال: ((إني لا أصافح النساء؛ إن قولي لمائة امرأة مثل قولي لامرأة واحدة))[٦٩].

* * *

٦٩ حديث مبايعة هند بنت عتبة أخرجه الحاكم (٤٨٦/٢) بغير هذا السياق، وليس فيه قوله: ((إني لا أصافح النساء))، الحديث، وإنما هذا حديث أخرجه أحمد (٣٥٧/٦) والترمذي (١٥٩٧)، وابن ماجة (٢٨٧٤) من حديث أميمة بنت رقيقة وفيه: ((إني لا أصافح النساء...))، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح".

إشادة بعتبة بن ربيعة

ويقول المؤلف ص ٦١- ٦٢ في تأييد رأيه بأن هندًا لم تمثل بحمزة يوم أحد: "وما نظن هندًا إلا بنت أبيها بنت هذا الأب الرحيم الوادع، وما نشك في أنها ورثت الكثير عنه، وما نظن أن حزنها على أبيها وحزنها على أخيها يخرجان بها إلى هذه القسوة القاسية، التي لا يملكها قلب امرأة ما؛ بَلْه هند".

ويقول ص ٤٠: "وهكذا عجل القتل عتبة عن أن يعيش في ظل الإسلام عمرًا، وأن يكون مع المقتولين أولاً على شركهم.

وما نشك في أنه لو امتدَّ به العمر لكان له شأنٌ في الإسلام ومع المسلمين مسلمًا، وما قال عتبة لقومه يدل على باطنه، ويدل على أنه كان يمهِّد لإعلان هذا الباطن لولا أن عاجله القتل.

هذا هو حديث عتبة، وهو حديث حالَ قتل صاحبه دون أن يطول ويمتدَّ، ودون أن يُكْتَب له شيءٌ في سجل المسلمين".

ويقول ص ٥٩: "وهذه هي هند المشركة بقيت على إشراكها هذا لا تتزحزح عنه، ولقد أحسَّ النبي ﷺ عنادَها في شركها، فكانت ممَّن أُهْدِر دماؤهم يوم فتح مكة، وكانت ممَّن أُمِر بقتلهم ولو وُجِدوا تحت أستار الكعبة".

ويقول ص ٦٣: "ولماذا سعت هند إلى الرسول يوم فتح مكة مذعنة بالإسلام، سمحًا به قلبها، أم كانت مع الخائفين والخائفات تريد أن تخلص لها حياتها؟

نكاد نميل إلى الشق الثاني؛ فلقد رأت هند الدنيا تقبل على أبي سفيان زوجها... إلخ".

وفي ص ٦٤ أورد مبايعة النساء ومحاورة هند للرسول: "ولما قال لها الرسول: ((ولا تقتلن أولادكن))، قالت: قد ربيناهم صغارًا وقتلتهم أنت بيدك كبارًا".

وفي تاريخ ابن الأثير ج ٢ ص ١٧١: "قال: ((ولا تقتلن أولادكن))، قالت: قد ربيناهم صغارًا وقتلتهم يوم بدر كبارًا، فأنت وهم أعلم".

"وهكذا كان إسلام هند إسلامًا لم ينسَ الشرك، ولم تقوَ هند على أن تكتم تلك البقية المشركة في قلبها، فكشفت عنها للرسول وهي تبايعه.

لقد كانت صاحبة عقيدة حريصة على تلك العقيدة حرصًا متوارَثًا، لا مجال فيه لرأي ولا لأخذ ولا لرد، ومثل هذا الإيمان لا تحل عقدته إلا رغبة جامحة أو رهبة كابحة، ولقد هيئت لهند الاثنتان: الرغبة في الجاه الذي ناله أبو سفيان وهولها، والرهبة التي نالها قومها بهذا الفتح وهي منهم.

ولكن مثل هذا الشرك لا تطهر النفس منه كله، فله بقايا تخالط النفس والدم والوجدان، تنطق عنها هند كلها دون وعي ودون شعور، وهكذا نطقت هند دون وعي ودون شعور تخاطب النبي بما خاطبته به حين قالت له: وقتلتهم أنت بيدك كبارًا".

ويقول ص ٦٧ عن هند: "ولكنها على كل حال كانت قد تأثَّرت بالدنيا التي تأثَّر بها أبو سفيان، وأخذت تلين للحياة وتلين لهذا الدين الجديد الذي هو وسيلتها للدخول إلى تلك الحياة، وأخذت تنسى شيئًا فشيئًا هذا الدين القديم الذي كاد يخرجها تعصُّبها له من الحياة خروجًا لا رجعة لها معه إلى تلك الحياة".

* * *

تشكيك في أحقية عثمان بالخلافة

ويقول في ص ١٤٢: "وهكذا ترى أن الأمور التي مَضَت في إيثار عثمان بالولاية دون عليٍّ سهلة لينة تعود مستعصية، وإذا هي كما قال عليٌّ من قبل: سيبلغ الكتاب أجله".

ويقول ص ١٤٣: "ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يدفع عن عثمان، ولا ينكر ما يقال فيه إلا نفر؛ منهم: زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعدي، وكعب بن مالك الأنصاري، وحسان بن ثابت".

وهذا غير صحيح؛ فمن المعروف أن عليًّا ﷺ كان من أكبر المدافعين عن عثمان، وقد أمر الحسن والحسين بالوقوف على باب عثمان عند الفتنة للدفاع عنه.

ويقول ص ٩٧: "وقد تَجِدُ قلوب المسلمين ويثيرها الوَجْد إلا أن تنظر إلى الأمور نظرة جاهلية، فهم من البشر يدخلون الحياة ويخرجون منها كما يدخل إليها البشر ويخرجون، اللهم إلا مَن زاده الله تقًى وزاده هداية وزاده إيمانًا، فعصمه من أن يحب وعصمه من أن يحقد، ورزقه العفو وهداه إلى الإحسان.

ولقد كان قلب الرسول قلبًا يستملي عن وحي ويملي عن هدًى، لا يعرف الوجد ولا يعرف الحفيظة، قلبٌ للناس جميعًا مسلمهم ومشركهم لا يصدر إلا عن خير...".

ويقول ص ١٤٦: "وقد علمت شيئًا من هذا فيما دار من نقاش بين أنصار الهاشميين وأنصار الأمويين عند اختيار عثمان خليفة، دلُّوك بالذي قالوه على أن الأمر أمر هاشمي أموي، وأن اختيار عثمان كان إبعادًا للهاشميين، ولو اختير عليٌّ لكان ذلك إبعادًا للأمويين، فالمسألة كما صوَّرها هذا النقاش هي في حقيقتها خلاف أموي هاشمي، وكان اختيار عثمان كما ظن الهاشميون وكما رأوا مَن يُعَدُّ تمهيدًا للزحف الأموي إلى تولي الأمر".

* * *

تناوله لعلي

ويقول ص ١٤٤ تعليقًا على نصيحة علي لعثمان: "وما نظن أن عليًّا كان يغالي يمزج ما في نفسه من شيء على الولاية بما كان لعثمان من أشياء في الولاية، وإن كنَّا آخر الأمر لا نُعفي عليًّا من أن يكون قد تأثَّر شيئًا فردَّه هذا التأثر إلى شيء من العنف بعثمان، ولكنَّا نعفي عليًّا من أن يكون هذا التأثُّر قد خرج به إلى أن يغالي ويصوِّر الأمر على غير صورته".

فانظر إلى تطاوُلِه وتجرُّئِه على أمير المؤمنين علي ﷺ بتلك الألفاظ التي لا تليق.

ويقول ص ١٤٧: "وتأزَّمت الأحوال واشتدَّ الأمر على عثمان، وكأني به قد أدرك ما يأخذه عليه الناس، وأحب أن يكون في جانب الناس شيئًا، فخرج عليٌّ ومعه نفرٌ من جِلَّة المسلمين فانصرف الناس راجعين إلى مصر، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا يدَّعون على عثمان شيئًا، وينكر عليهم عثمان أنه فعل هذا الشيء، ولقد صدق عثمان وصدق الناس؛ فعثمان لم يفعل ولكن دعاة الشر من حوله هم الذين فعلوا.

وهكذا خرجت الأمور من سيئ إلى أسوأ، ودخل فيها دعاة السوء فأفسدوها إفسادًا لا صلاح بعده.

وإنا لنشك أن المروانيين والأمويين كانوا لا يحرصون على أن تهدأ الفتنة، لا لشيء إلا لأنهم كانوا يحبون هذه الحرب الطائشة الجائرة لتختلط الأمور وتنقلب الأحوال رأسًا على عقب، يدخلون فيها بقسطهم وما يملكون؛ لعلهم يغيرون ويبدلون فعل الموتور لا يعنيه لِمَن تكون العاقبة، ولكن يعنيه أن تكون ثورةٌ وأن تكون فتنةٌ.

لقد كان عثمان أبعد ما يكون عن الشر، وأحرص ما يكون على الأمن، ولكن الذين حوله بدَّلوا عليه وغيروا وهيَّئُوا الناس لأن يلقوا عثمان على شر، وهيَّئُوا عثمان لأن يلقى الناس على خوف، وهيَّئُوا أنفسهم لأن ينالوا من شر الناس ومن خوف عثمان.

ولكنهم أرادوا أن يهلك عثمان وينجوا هم؛ لتكون فتنة كما حدثناك ويختلط الأمر في هذه الفتنة، وليكون لهم من وراء الاختلاط شيء...".

فانظر إلى تجرُّئِه هنا على مقام الصحابة أجمعين، وتجريدهم من صفة الصحبة، وذكره لهم بالمروانيين والأمويين، وأنهم ساروا وراء عصبيتهم تاركين أمر الشرع جانبًا!

ويقول ص ١٢٥: "ويقبض الله إلى جواره عمرَ بن الخطاب سنة ثلاث وعشرين، ولكنه قبل أن يمضي إلى جوار ربه دعا إليه النفر الذين تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ: عليًّا، وعثمان،

والزبير، وسعدًا، وعبدالرحمن بن عوف، وقال لهم: انتظروا أخاكم طلحة ثلاثًا، فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم.

ثم نادى ابنه عبدالله بن عمر، وقال له: إن اختلف القوم فكن مع الأكثر، فإن تشاوروا فكن مع الحزب الذي فيه عبدالرحمن بن عوف.

واجتمع أهل الشورى وطلحة غائب، وأمَّروا أبا طلحة أن يحجبهم، وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلس بالباب، فحصبهما سعد وأقامهما وقال لهما: تريدان أن تقولا: حضرنا وكنا في أهل الشورى؟!

وهكذا كان يحرص على أن لا يدخل في هذا الأمر مَن ليس هو من أهل هذا الأمر، فلقد كان القوم ينظرون إلى الخلافة نظرةً عليها مِسْحةً جاهلية، مسحة قَبَلِية، مسحة لا تبعد كثيرًا عمَّا كان عليه القوم في أيامهم الأولى قبل الإسلام، وهذا ما خافه عمر وما حذر منه".

وكلامنا هنا مثل كلامه في الفقرة السابقة؛ إذ يصف الصحابة الكرام بأنهم ينظرون إلى الخلافة نظرةً جاهلية وقبلية، وما أمر الشورى الذي جرى إلا تكذيب لمزاعمه وتفنيد لأكاذيبه.

ويقول ص ١٧١: "وكان رسول عليٍّ إلى معاوية سبرة الجهني، وفد سبرة على معاوية فحبس معاوية سبرة عنده ولم يُجِبْه بشيء، وكان سبرة كلما تنجَّز معاوية جوابه لم يزد معاوية على أن يقول:

أَدِمْ إِدَامَةَ حُصٍّ أَوْ خُذَا بِيَدِي = حَرْبًا ضَرُوسًا تَشُبُّ الجَزْلَ وَالفَرَمَا

فِي جَارِكِمْ وَابْنِكُمْ إِذْ كَانَ مَقْتَلُهُ = شَنْعَاءَ شَيَّبَتِ الأَصْدَاغَ وَاللِّمَمَا

أَعْيَا المسُودَ بِهَا وَالسَّيِّدُونَ فَلَمْ = يُوجَدْ لَنَا غَيْرُنَا مَوْلًى وَلاَ حَكَمَا

وهكذا أراد معاوية – كما قلت لك – أن ينتفع بمقتل عثمان كله، وأنت تراه صريحًا في هذا الشعر الذي استشهد به يحب أن يجعل إليه أمر المطالبة بدم عثمان".

ويقول ص ١٧٣: "أرأيت أنا لم نكن بعيدِين عن الحق حين قلنا: إن معاوية كان يعنيه أن ينتهي الأمر بعثمان إلى ما انتهى إليه، فقد رآه شيخًا هرمًا فانيًا، كما جرى على لسانه وهو يخاطب عليًّا وطلحة والزبير مخرجه من المدينة، وأنه لا عليه من أن يودِّع عثمان الحياة على أية صورة كان هذا التوديع ما دام هو الغانم منها، وكأني به قد أحب أن تكون الصورة التي يخرج بها عثمان من هذه الدنيا هي تلك الصورة المؤلِمة التي خرج عليها عثمان؛ ما دامت هي الصورة التي تتيح لمعاوية أن يكسب الكسْب كله، وأن يغنم الغنم كله".

وكما هي عادة المؤلف في اختلاق الأكاذيب، فهو هنا يلقي بتَبِعَة ما حدث في فتنة مقتل عثمان ﷺ على معاوية، مع أن معاوية كان بعيدًا عن مسرح الأحداث، ولكنه الحقد الدفين الذي يقلب الحقائق ويزوِّر الوقائع.

ويقول ص ١٥٤: "يخيَّل إليَّ أن معاوية كان حريصًا هو الآخر على أن يمكِّن للفتنة أن تقع، وقد رأى بوادرها، ورأى من تلك البوادر ما قد يفيد منه".

ويقول ص ١٥٥: "ومن أجل ذلك خرج معاوية وهو مطمئن أن الفتنة بالغة نهايتها، وأن التهمة التي عرف أولها ستبلغ هذه الأخرى نهايتها إن قُتِل عثمان، ولقد كان معاوية فيما ذُكِر غيرَ حريص على بقاء عثمان أمدًا طويلاً، فلقد حدث القوم فيما مرَّ بك أن عثمان قد كبر وولَّى عمره، والرجال الذين يطمعون في الملك ويطمعون في السيادة لا تعنيهم كثيرًا حياة مَن يزحمونهم على هذا الملك ويحجبونهم عنه، ولا أحب أن أشتدَّ على معاوية فأقول: إنه كان ينظر لعثمان تلك النظرة ولا يحرص على بقائه طويلاً".

ويقول ص ١٥٧ عن الأمويين: "لولا أن قتل عثمان فخرجوا بمقتله من غنم إلى غنم، فلقد غنموا الدنيا على يدي عثمان حيًّا، وها هم أولاء حريصون على أن يغنموها بعد مقتل عثمان.

ما نشك في أن الأمويين جعلوا من ملك عثمان السبيل إلى تملُّكهم، وكأنهم قد أُنْسُوا حين ولي عثمان أن الأمر خلافة يليها عثمان، ويليها بعد عثمان مَن يختاره المسلمون، فما أن رأوا عثمان على كرسي الخلافة حتى خالوا الأمر ملكًا متوارثًا سيرثونه هم من بعد عثمان...".

وها هو يعود هنا مرة أخرى ليتَّهم الصحابة الكرام بالطمع بالخلافة، والحكم دون التزام بشورى أو باستخلاف الأصلح.

ويقول ص ١٥٩: "فلقد كتب عليٌّ حين اشتد الحصار بعثمان إلى معاوية وإلى ابن عامر، وإلى أمراء الأجناد يستنجد بهم ويأمرهم بالعجل وإرسال الجنود إليه، فتربَّص به معاوية وكان أَوْلَى الناس بألاَّ يتربص معاوية".

ويقول ص ١٥٩: "ودُفِن عثمان في مكان خارج البقيع يسمى (حش كوكب) يقولون: إنه لم يغسَّل وإنه كُفِّن في ثيابه".

* * *

خلاف أبي ذر مع عثمان

يقول المؤلف ص ١٣٥: "وفي العام المتمِّم الثلاثين من الهجرة كان بين معاوية وأبي ذر خلاف طويل، وكان هذا الخلاف يمتدُّ إلى أصل من أصول الحكم، وأصل من أصول الحياة الاجتماعية، ضاق فيه معاوية بأبي ذر، فأخرجه عن المدينة إلى الشام على صورة شنيعة - كذا".

ثم يقول ص ١٣٦ عن أبي ذر: "وكان يأخذ بظاهر القرآن: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، وما زال أبو ذر على ذلك حتى أغرى الفقراء وأوجب الفقراء ذلك على الأغنياء، وشكَا الأغنياء ما يلقونه من ذلك إلى معاوية...".

وفي ص ١٣٧: فكتب عثمان إلى معاوية (إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ولم يبقَ إلا أن تَثِبَ، فجهِّز أبا ذر إليَّ وابعث معه دليلاً وزوِّده وارفق به)، ولكن معاوية - فيما يقال - لم يرفق بأبي ذر ولم يخرجه على الحال التي أراد عثمان أن يخرج عليها.

وقدم أبو ذر على عثمان فقال له: ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك؟ فأخبره، فقال عثمان: يا أبا ذر، عليَّ أن أقضي ما عليَّ وأن أدعو الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد، وما عليَّ أن أجبرهم على الزهد، فقال أبو ذر: لا ترضوا من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران والإخوان ويصلوا القرابات، فقال كعب الأحبار وكان حاضرًا: مَن أدَّى الفريضة فقد قضى ما عليه فضربه أبو ذر فشجه.

واستأذن أبو ذر عثمان في الخروج من المدينة قائلاً له: إن رسول الله ﷺ أمرني بالخروج إذا بلغ البناء سلعًا[٧٠] وكان البناء قد بلغ سلعًا.

فأَذِن له عثمان فخرج أبو ذر ونزل الربذة وبنى بها مسجدًا، وأقطعه عثمان سَرْمدًا من الإبل، وأعطاه مملوكَين وأجرى عليه كل يوم عطاء، وبعد هذا أخرج معاوية إلى أبي ذر أهله فخرجوا ومعهم جراب يثقل يد الرجل، وقال له معاوية: انظروا إلى هذا الذي يزهد في الدنيا ما عنده، فقالت امرأته: والله لقد كان حين يخرج إلينا عطاؤه يبتاع منه ما يكفي حوائجنا".

فمن عبارته التي ذكرها يتبين أن أبا ذر ﷺ خرج إلى الربذة بإرادته وليس بأمرٍ من عثمان أو معاوية - رضي الله عنهما.

ويقول المؤلف ص ١٣٩: "ولقد كان عثمان يرى في معاوية رجلاً قريبًا منه يركن إليه، أكثر ممَّا يراه واليًا على الشام...".

---

٧٠ جبل قريب من المدينة.

ويقول ص ١٤٠: "وهكذا كان عثمان يرى في معاوية شريكًا له في تأديب الرعية وفي استتباب الأمن...".

ويقول ص ١٤٢: "وكان عزيزًا على المسلمين أن يُنْفَى رجل مثل أبي ذر إلى الربذة، وكان أبو ذر يهيجها في نفوس المسلمين؛ فكان إذا ما سُئِل: ما الذي أنزلك الربذة؟ فكان يقول: أنصح لعثمان ولمعاوية".

ويقول ص ١٦٨: "وهكذا نرى أن هذا الإجماع الذي كان من قبلُ على تأثيم عثمان قبل أن يقتل، بَدَا غير إجماع على تأثيمه بعد أن قُتِل، بل كان الناس أقرب إلى الثانية منهم إلى الأولى، وبدوا جلُّهم نادمين على ما كانوا وعلى ما فرط من بعضهم.

وإخالك ترى معي من هذا أن تلك الثورة لم تكن ثورة فكر ولا ثورة عقل، وإنما كانت لونًا من ألوان الهيج أُذِيع عن عثمان شيء قد يكون حقًّا وقد يكون غير حق، ومضى المذيعون يهوِّلون في هذا الذي اتهموا به عثمان، ووعى ذلك العامَّة فلُقِّنوه على عِلاَّته، فثاروا لا يبلغ إلى علمهم كُنْه ما ثاروا له، وترك هؤلاء العامة يتخبَّطون في الرأي".

ويقول ص ١٦٩: "وقد يكون ما حدث قليلاً لا يسيء إلى حكم هذا الخليفة، ولكنه كان كثيرًا إلى تلك النفوس التي أنست بالحكم الصالح".

ويقول ص ١٧٠: "وهكذا كانت الثورة بعثمان ثورةً بدأها أولو الرأي، ثم تلقَّفها عنهم العامَّة وسكت عنها أولو الرأي، وأشعلها العامة فإذا هي ثورة غير مفكِّرة غير واعية تقود الأمة إلى هذا البوار".

ويقول ص ١٥٢: "وينضمُّ عثمان إلى ابن أخيه معاوية، وهكذا بدأت المسألة تأخذ صورتها، وبدأ الخلاف يأخذ وضعه، فقال عثمان لعلي: صدق ابن أخي أنا أخبركما عمَّا وليت...".

ويقول ص ١٥٥- ١٥٦: "وأحاط الثائرون بعثمان وقتل الخليفة الثالث ولم يرحم الثائرون شيخوخته، ولم يرحم الثائرون سلمه... لقد كانت الثورة بعثمان أضعف من أن تسمى ثورة، وكان الثائرون بعثمان أضعف من أن يُسَمَّوا ثوَّارًا، وكان القاتلون لعثمان أضعف من أن يجرؤوا على قتله، ولكن النفوس في المدينة وفي غير المدينة كانت قد انتهت إلى ضيق بعثمان، لم تملك معه أن تنظر له وتصرف هؤلاء الثائرين عنه، فملكت الثورة طريقها وملك الثائرون طريقهم، وملك القاتلون أن يفعلوا".

إنه يصوِّر هنا أن مقتل عثمان كان بثورة عامَّة عارمة قامت بالإجماع، ولا يذكر أنها كانت فتنة قام بها شرذمة قليلون.

* * *

طعنه في عائشة

يقول ص ١٨٢: "ولكن الذي ندريه أن مقتل عثمان استُغِلَّ استغلالاً واسعًا ضدَّ عليٍّ، استغلَّه ضدَّه معاويةُ، وها هي ذي عائشة تستغله ضده".

فانظر إلى جرْأته على الصحابة الكرام، وعلى أم المؤمنين عائشة بتلك الألفاظ والاتهامات.

وفي ص ١٨٣ بعد أن ذكر أقوالاً لعائشة بمكة تثني فيها على عثمان يقول: "وهكذا أثارت النفوسَ عائشةُ، ولا ندري على مَن كانت تثيرها".

فانظر إلى لمزه أم المؤمنين وتلميحه لأنها كانت تثير الناس على علي – رضي الله عنهما.

قال ابن الأثير في "تاريخه" ج ٣ ص ٧٩: "وقال معاوية لعثمان: اخرج معي إلى الشام فإنهم على الطاعة قبل أن يهجم عليك مَن لا قِبَل لك به، فقال: لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء وإن كان فيه خبط عنقي، قال: فإن بعثت إليك جندًا منهم يقيم معك لنائبة إن نابت، قال: لا أضيق على جيران رسول الله ﷺ فقال: والله لتغتالن ولتغزين، فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، ثم خرج معاوية فمرَّ على نفر من المهاجرين فيهم علي وطلحة والزبير وعليه ثياب السفر، فقام عليهم وقال: إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه حتى بعث الله نبيه ﷺ وكانوا يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد، فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم والناس لهم تَبَع، وإن طلبوا الدنيا بالتغالُب سُلِبوا ذلك وردَّه الله إلى غيرهم، وإن الله على البدَل لقادر، وإني قد خلَّفت فيكم شيخًا فاستوصوا به خيرًا، وكاتِفُوه تكونوا أسعد منه بذلك، ثم ودَّعهم ومضى، فقال علي: كنت أرى في هذا خيرًا، فقال الزبير: والله ما كان قطُّ أعظم في صدرك وصدورنا منه اليوم".

* * *

طعنه في عبدالرحمن بن عوف

يقول المؤلف ص ١٣٠: "وما ندري كيف دُبِّر الأمر ولكنه هكذا وقع، وهكذا أجاب علي، وهكذا أجاب عثمان، وما نظن أن هذه الإجابة أو تلك تعطي لعبدالرحمن الإيثار في الاختيار، ولكن عبدالرحمن شاء أن يؤثِر عثمان بالخلافة لإجابته تلك، فما أن أجاب عثمان بما أجاب به حتى رفع عبدالرحمن رأسه إلى سقف المسجد، ويده في يدي عثمان وقال: اللهم اسمع واشهد أني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان...".

ثم يقول عن عبدالرحمن: "وكان صهر عثمان تزوَّج أمَّ كلثوم بنت عتبة - كذا - بن أبي معيط، وهي أخت عثمان لأمه، ولنترك لعلي أن يقول؛ ففي قوله ما يغنينا عن الرد على عبدالرحمن بعدما كان منه من مبايعته لعثمان يقول: ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبرٌ جميل، والله المستعان على ما تصفون..." إلخ.

فهنا طعن في كلامه هذا بنزاهة عبدالرحمن بن عوف الذي لم يطمع بالخلافة لنفسه، وقد ثبت أنه بقي ثلاثة أيام وهو يسأل الناس ويستشيرهم فيمَن يولي، فوجد أكثرهم يشيرون عليه بعثمان؛ لذلك بايعه، ولم تكن بيعته له عن طمع أو مصلحة أو غير ذلك كما يزعم المؤلف.

* * *

قدحه في طلحة والزبير

ويقول ص ١٦٠ عن مبايعة علي: "وكان أوَّل مَن بايعه من الناس طلحة بن عبيدالله، وكانت له يد شلاء فتشاءم الناس بذلك وقالوا: لن يتمَّ هذا الأمر، وبايعه بعد طلحة الزبيرُ، ولكنهما بعد ذلك أنكَرَا هذه البيعة، وادَّعيا أنهما فعلاها خشية على نفسيهما، وهربا إلى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر...".

ويقول ص ١٦١: "وقد قلت لك: إن الذين لانوا ليقتل عثمان إنما فعلوا ذلك ليوطِّئوا لأنفسهم، ويملكوا الأسباب للمطالبة بدم عثمان وليدخلوا إلى الأمر بعلَّة ما، فلقد رأينا طلحة والزبير بعد أن بايعا عليًّا ينكران هذه البيعة أولاً، ثم يلمان بعلي فيقولان له: إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم، ويدرك علي ما يريد طلحة والزبير ويدرك أنهما ما أرادا الحق، وإنما أرادا أن يضعا العقبات في طريقه وأن يجعلا لنفسيهما عليه حجة، فيقول لهما علي: يا أخويَّ، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ فهل ترَوْن موضعًا لقدرة على شيء؟ فما تريدون؟ قالوا: لا.

وهكذا بدأ مقتل عثمان يُستغلُّ ضدَّ عليٍّ، يستغله هؤلاء الذين يملكون أن يفعلوا شيئًا فلم يفعلوا".

فانظر إلى اتهامه الصريح لطلحة والزبير – رضي الله عنهما – وأنهما ما أرادا الحق، وكيف يتلقط الروايات التي لم تثبت.

* * *

غمزه لعبدالله بن عمر

يقول ص ٢٥٠: "ومعاوية لَبِقٌ يعرف كيف يشتري الرجال، فتراه قد أرسل إلى عبدالله بن عمر مائة ألف درهم فقبلها عبدالله، فلمَّا ذُكِر معاوية لابن عمر أمر البيعة ليزيد؛ قال ابن عمر: هذا أراد إن ديني عندي إذًا لرخيص! وامتنع ابن عمر عن البيعة".

* * *

غمزه الحسن بن علي

يقول ص ٢٣٣- ٢٣٤: "وهكذا باع الحسن الخلافة لمعاوية بخمسة آلاف وألف، وأسلم الأمر لمعاوية بهذا الثمن الرخيص، وخرج من الأمر عليه لا له.

وكان الحسن بارًّا فيما فعل مع معاوية، فلقد كتب إلى قيس بن سعد وكان على مقدمته في اثني عشر ألفًا في ذلك الجيش الذي كان مجهَّزًا لحرب معاوية، يأمره بالدخول في طاعة معاوية، وكبُرت على نفس قيس فقام في الناس يخطبهم وهو يقول: أيُّها الناس، أتختارون الدخول في طاعة إمام ضلالة أم القتال من غير إمام؟".

فالمؤلف هنا لم يَكْفِه ما قاله في حق الصحابة مما سبق؛ بل تعدَّاهم إلى آل بيت النبوة، فها هو يقول عن الحسن بأنه باع الخلافة، ولم يذكر بأنه ﷺ فعل ذلك لحقن دماء المسلمين وتمثُّلاً بقول رسول الله ﷺ فيه: ((إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين))[٧١].

* * *

٧١ تقدم تخريجه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طعنه في أبي قحافة

ويقول ص ١٠٨- ١٠٩ عن أبي قحافة: "فقد كان أبو قحافة رجلاً جاهليًّا إسلاميًّا، في نفسه من آثار الجاهلية أكثر مما في نفسه من آثار الإسلام، فكان يعرف أبا سفيان ويعرف ابنه أبا بكر بالروح الجاهلية لا بالروح الإسلامية، أو لو عرفهما في ظل الإسلام ونسي معرفته عنهما في ظل الجاهلية، لما استكثر على ابنه أن يرفع صوته على أبي سفيان، ولعرف أن ابنه خليفة وأن أبا سفيان رعية، ولعرف أن الخليفة من حقِّه أن يأخذ رعاياه بما يبدو له شدَّة ولينًا".

* * *

طعنه في عمرو بن العاص

وفي ص ١٩٣: وهو يذكر قصة مشاورة عمرو بن العاص بنيه عبدالله ومحمد بعد مقتل عثمان، وإشارة عبدالله أن يلزم بيته، وإشارة محمد أن يكون له صوت ورأي في الأمر، وقول عمرو: "أما أنت يا عبدالله، فقد أمرتني بما هو خيرٌ لي في آخرتي وأسلم في ديني، وأما أنت يا محمد، فقد أمرتني بما هو خيرٌ لي في دنياي وشرٌّ لي في آخرتي".

والغريب أن يعقِّب المؤلف على هذا بقوله: "وهكذا كان أمر عبدالله ومحمد ابني عمرو في أمر علي ومعاوية؛ فعبدالله كان ينظر إلى الدنيا كما كان ينظر معاوية، ومحمد كان ينظر إلى الدين كما ينظر علي..."، ثم يقول بعد أسطر: "وهذه هي فرصة الدنيا أمام عمرو قد لاحَتْ، فابتدرها لا يلتفت إلى ما أمره به ابنه عبدالله، والتفت عمرو إلى أهل الشام يقول لهم: أنتم على الحق، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم، يريد بذلك أن يلفت إليه معاوية، وكان معاوية مشغولاً عنه فلم يلتفت إليه، وأحسَّ ابنا عمرو ما كان من معاوية فنظرَا إلى أبيهما يقولان له: ألا ترى معاوية لا يلتفت إليك؟ انصرف إلى غيره، وهكذا اجتمع الولدان مع أبيهما على طلب الدنيا، يأمرانه أن يقصد بابًا إن سُدَّ بابٌ دونه".

ويورد بعد ذلك ما ينسبه إلى عمرو من قوله لمعاوية: "إن في النفس ما فيها حيث نقاتل مَن نعلم سابقته وفضله وقرابته، ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا".

ويقول ص ٢١٦: "وهنا أدرك أبو موسى أن وراء الأمر خدعة، وأن عمرًا قد خدع أبا موسى، فالتفت إلى أبي موسى يقول له: ويحك، والله إني لأظنه قد خدعك.

ولكن أبا موسى مع إجلالنا له كان رجلاً أقرب إلى السذاجة منه إلى العمق، كثير الثقة بالناس يطمئن إلى قولهم، لا يعرف المداورة ولا المحاورة؛ ولهذا كان رده على ابن عباس: إنا قد اتفقنا".

فكيف ينسب الصحابي الجليل أبا موسى إلى السذاجة مع جلالة قدره؟! وهل يليق استخدام مثل هذه الألفاظ مع الصحابة عمومًا؟!

ويقول ص ٢١٩- ٢٢٠: "ثم يقول أبو موسى لعمرو: لا وفَّقك الله، غدرت وفجرت، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فيقول عمرو لأبي موسى: إنما مثلك مثل الحمار يحمل أسفارًا.

هذا سائر الحديث نذكره ونمسك عن ذكر ما كان بين القوم من تنابُز وصراع، وأنت ترى معي أن تعقيب عمرو على أبي موسى كان لا يعني غير شيء واحد، هو أن عمرًا خرج على ما اتَّفق عليه مع أبي موسى فمكر وخان، فأسقط نفسه ولم يعد موضع ثقة.

وأكاد أظن أن رجلاً مثل عمرو لا يسقط مثل هذه السقطة المخزية غير المجدية، اللهم إلا إذا كان قد اتفق مع أبي موسى على شيء.

لا أكاد أسيغ لعمرو ما قال إلا إذا استسغت أن الخوف والحرص جرَّداه من كل ما يملك من صفات العزة والإباء والكرامة والصدق والنخوة".

لقد بلغت به جرأته على مقام الصحابة حدًّا جعله يجرِّد صحابيًّا جليلاً كعمرو بن العاص من العزة والإباء والكرامة والصدق والنخوة، عامله الله بما يستحق؛ كيف استجاز أن ينعت صحابيًّا بمثل تلك النعوت؟!

ويقول ص ٢٢١: "وقد علمنا أن أبا موسى خرج من تلك المعركة خازيًا فهرب إلى مكة".

ويقول ص ٢٢٢ تعليقًا على تهنئة عمرو لمعاوية بالخلافة بعد رجوعه من التحكيم: "وإنما كان إمعانًا من عمرو في السخرية بالناس، وإمعانًا من عمرو بالعبث بحقوق الناس، وإمعانًا من عمرو في العبث بشؤون الرعية المسالمة".

ويقول ص ٢٤٨ عن المغيرة بن شعبة: "لقد وضعت رجل معاوية في غرْز بعيد الغاية على أمة محمد، وفتقت عليهم فتقًا لا يرتق أبدًا".

"ولا ندري كيف سمحت نفس المغيرة له أن يفعل ذلك مع ثقته أنه قد فتق على أمة محمد فتقًا لا يُرْتَق، ولكنها سياسة يرمي بها بعض الناس إلى أن ينالوا لأنفسهم من ورائها غنًى أو كسبًا لا يعنيهم مغبتها على الناس".

ثم يروي قصة إيفاد المغيرة عشرين رجلاً من أهل الكوفة على معاوية، واقتراحهم عليه مبايعة يزيد بولاية العهد، ثم يقول ص ٢٤٩: "وكان المغيرة قد اشترى هؤلاء الناس بدراهم، وكان ذلك أسلوب العصر أو أسلوب معاوية على الأصح، ومعاوية يعرفه ويوعز به ويغري عليه، فهو لهذا قال

لموسى بن المغيرة – وكان على رأس هؤلاء العشرة –: بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ فقال موسى: بثلاثين ألفًا، فقال معاوية: لقد هان عليهم دينهم.

غير أن معاوية زاد إيمانه بالبيعة ليزيد، وفتح له المغيرة السبيل وعرفه بالذي كان، وأن الذِّمَم تُباع وأن العهود تُشْتَرى، ومعاوية يملك من المال الكثير مما يقوى به على شراء الذِّمَم والعهود".

ونورِد هنا في ختام كتابنا بعض أقوال الصحابة والسلف الصالح في معاوية، ونسرد بعضًا من أخباره وطرفه مما يظهر حلمه وكرمه وعدله – رضي الله عنه:

روى ابن عساكر عن أبي زرعة الرازي أنه قال له رجل: إني أبغض معاوية فقال له: ولِمْ؟ قال: لأنه قاتل عليًّا، فقال له أبو زرعة: ويحك إن رب معاوية رحيم، وخصم معاوية خصم كريم، فأيش دخولك أنت بينهما – رضي الله عنهما؟!

وقال الأوزاعي: سُئِل الحسن عمَّا جرى بين علي وعثمان فقال: كان لهذا سابقة ولهذا سابقة، ولهذا قرابة ولهذا قرابة، فابتُلِي هذا وعُوفِي هذا.

وسُئِل عمَّا جرى بين علي ومعاوية فقال: كانت لهذا قرابة ولهذا قرابة، ولهذا سابقة ولم يكن لهذا سابقة، فابتُلِيَا جميعًا.

وقال الحارث الأعور: قال علي بعدما رجع من صفين: أيها الناس لا تكرهوا إمارة معاوية؛ فإنكم لو فقدتموه لرأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها كأنها الحنظل[٧٢].

ودخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبي سفيان فأشار له إلى الوساد فقال له: اجلس، فجلس على الأرض فقال له معاوية: وما منعك يا أحنف من الجلوس على الوِسَاد؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن فيما أَوْصى به قيس بن عاصم المنقري ولدَه أن قال: لا تغشى السلطان حتى لا يملَّك، ولا تقطعه حتى ينساك، ولا تجلس له على فراش ولا وِسَاد، واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين؛ فإنه عسى أن يأتي مَن هو أَوْلى بذلك المجلس منك فتُقَام له؛ فيكون قيامك زيادة له ونقصًا عليك، حسبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين لعلَّه أن يأتي مَن هو أولى بذلك المجلس مِنِّي، فقال معاوية: لقد أُوتِيَتْ تميم الحكمة مع رقة حواشي الكلام وأنشأ يقول:

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَمَّا مَضَى = وَعِلْمِ هَذَا الزَّمَنِ العَائِبِ

إِنْ كُنْتَ تَبْغِي العِلْمَ أَوْ أَهْلَهُ = أَوْ شَاهِدًا يُخْبِرُ عَنْ غَائِبِ

فَاعْتَبِرِ الأَرْضَ بِسُكَّانِهَا = وَاعْتَبِرِ الصَّاحِبَ بِالصَّاحِبِ[٧٣]

---

٧٢ "البداية والنهاية": جـ ٨، ص ١٣٠ – ١٣١.

٧٣ "البيان والتبيين"؛ للجاحظ، ج١، ص ٧٧.

وقال عبدالملك بن مروان يومًا وذكر معاوية فقال: ما رأيت مثله في حلمه واحتماله وكرمه.

وقال قبيصة بن جابر: ما رأيت أحدًا أعظم حلمًا، ولا أكثر سؤدُدًا، ولا أبعد أناة، ولا ألين مزحًا، ولا أرحب باعًا بالمعروف – من معاوية.

وقال بعضهم: أسمعَ رجلٌ معاويةَ كلامًا سيئًا شديدًا فقيل له: لو سطوت عليه؟ فقال: إني لأستحي من الله أن يضيق حلمي عن ذنب أحدٍ من رعيتي.

وفي رواية قال له رجل: يا أمير المؤمنين، ما أحلمك! فقال: إني لأستحي أن يكون جُرْم أحد أعظمَ من حلمي.

وقال الأصمعي عن الثوري: قال معاوية: إني لأستحي أن يكون ذنبٌ أعظم من عفوي، أو جهل أكبر من حلمي، أو تكون عورة لا أواريها بستري.

وقال الشعبي والأصمعي عن أبيه قالا: جرى بين رجل يقال له أبو الجهم وبين معاوية كلامٌ، فتكلم أبو الجهم بكلام فيه غمز لمعاوية، فأطرق معاوية ثم رفع رأسه فقال: يا أبا الجهم: إياك والسلطانَ؛ فإنه يغضب غضب الصبيان، ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليله يغلب كثير الناس، ثم أمر معاوية لأبي الجهم بمال، فقال أبو الجهم في ذلك يمدح معاوية:

نَمِيلُ عَلَى جَوَانِبِهِ كَأَنَّا = نَمِيلُ إِذَا نَمِيلُ عَلَى أَبِينَا

نُقَلِّبُهُ لِنُخْبِرَ حَالَتَيْهِ = فَنُخْبِرَ مِنْهُمَا كَرَمًا وَلِينَا

وقال الأعمش: طاف الحسن بن علي مع معاوية، فكان معاوية يمشي بين يديه فقال الحسن: ما أشبه أليتيه بأليتي هند! فالتفت إليه معاوية فقال: أما إن ذلك كان يعجب أبا سفيان.

وقال ابن أخته عبدالرحمن ابن أم الحكم لمعاوية: إن فلانًا يشتمني، فقال له: طأطئ فتمر فتجاوزك.

وقال ابن الأعرابي: قال رجلٌ لمعاوية: ما رأيت أنذل منك، فقال معاوية: بلى، مَن واجه الرجال بمثل هذا.

وقال أبو عمرو بن العلاء: قال معاوية: ما يسرني بذل الكرم حمر النَّعم، وقال: ما يسرني بذُلِّ الحلم عزُّ النصر، وقال بعضهم: قال معاوية: يا بني أمية فارِقوا قريشًا بالحلم؛ فوالله كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتمًا وأوسعه حلمًا، فأرجع وهو لي صديق؛ إن استنجدته أنجدني، وأثور به فيثور معي، وما وضع الحلم من شريف شرفه، ولا زاده إلا كرمًا.

وقال: آفة الحلم الذل، وقال: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهلَه وصبره شهوته، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم.

وقال رجل لمعاوية: مَن أسودَ الناس؟ فقال: أسخاهم نفسًا حين يسأل، وأحسنهم في المجالس خلقًا، وأحلمهم حين يستجهل.

وقال أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى: كان معاوية يتمثَّل بهذه الأبيات كثيرًا:

فَمَا قَتَلَ السَّفَاهَةَ مِثْلُ حِلْمٍ = يَعُودُ بِهِ عَلَى الجَهْلِ الحَلِيمُ

فَلاَ تَسْفَهْ وَإِنْ مُلِّئْتَ غَيْظًا = عَلَى أَحَدٍ فَإِنَّ الفُحْشَ لُومُ

وَلاَ تَقْطَعْ أَخًا لَكَ عِنْدَ ذَنْبٍ = فَإِنَّ الذَّنْبَ يَغْفِرُهُ الكَرِيمُ

وعن ابن عباس أنه قال: قد علمت بِمَ غلب معاويةُ الناسَ؟ كان إذا طاروا وقع، وإذا وقعوا طار.

وقال غيره: كتب معاوية إلى نائبه زياد: إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا باللين فيمرحوا ولا بالشدة فيحمل الناس على المهالك، ولكن كن أنت للشدة والغلاظة والغلظة، وأنا للين والإلفة والرحمة، حتى إذا خاف خائف وجد بابًا يدخل منه٧٤.

وقال سعيد بن عبدالعزيز: لما قتل عثمان لم يكن للناس غازية تغزو، حتى كان عام الجماعة فأغزى معاوية أرض الروم ست عشرة غزوة، تذهب سرية في الصيف ويشتوا بأرض الروم، ثم تقفل وتعقبها أخرى.

وكان في جملة من أغزى ابنه يزيد ومعه خلق من الصحابة، فجاز بهم الخليج وقاتلوا أهل القسطنطينية على بابها، ثم قفل بهم راجعًا إلى الشام، وكان آخر ما أوصى به معاوية أن قال: شدَّ خناق الروم٧٥.

لما مرض معاوية مرضَه الذي مات فيه، دخل عليه بعض بني هاشم ليعوده، فلمَّا استأذن عليه قام وجلس وأظهر القوة والتجلُّد، وأذن للهاشمي فدخل عليه، ثم قال متمثِّلاً بقول أبي ذؤيب الهذلي من قصيدةٍ رثى بها أولادًا له ماتوا بالطاعون:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ = أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ

فأجابه الهاشمي على الفَوْر من القصيدة المذكورة بعينها:

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا = أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لاَ تَنْفَعُ٧٦

وقال معاوية لعقيل: إن عليًّا قطعك ووصلتك، ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر، قال: أفعل، فصعد المنبر وحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن أمير المؤمنين أمرني أن ألعن عليًّا فالعنوه، عليه

---

٧٤ "البداية والنهاية": جـ٨، ص ١٣٥- ١٣٦.

٧٥ "البداية والنهاية": جـ٨، ص ١٣٣.

٧٦ ذكره محمد بن إبراهيم الأحدب، انظر: هامش "المستطرف": جـ ٢، ص ٢٧٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ثم نزل، فقال له معاوية: إنك لم تبين مَن المراد مِنَّا، قال: والله لا زدت حرفًا، والكلام راجع إلى نية المتكلم[٧٧].

حكى صاحب "العقد الفريد" قال: قَدِم عقيل بن أبي طالب على معاوية، فأكرمه وقرَّبه وقضى عنه دينه، ثم قال له في بعض الأيام: يا عقيل: أنا خير لك من أخيك علي، قال: صدقت: أخي آثر دينه على دنياه، وأنت آثرت دنياك على دينك، فأنت خيرٌ لي من أخي، وأخي خير لنفسه منك لنفسك.

ودخل عقيل أيضًا على معاوية وقد كُفَّ بصره فأقعده على سرير معه، ثم قال له: أنتم – معاشر بني هاشم – تُصَابُون في أبصاركم، فقال عقيل: وأنتم – معاشر بني أمية – تصابون في بصائركم.

ودخل عليه يومًا فقال معاوية لأصحابه: هذا عقيل عمُّه أبو لهب، فقال عقيل: وهذا معاوية عمته حمالة الحطب، ثم قال: يا معاوية، إذا دخلت النار فاعدِل ذات اليسار؛ فإنك ستجد عمِّي أبا لهب مفتَرِشًا عمتك حمالة الحطب، فانظر أيهما خيرًا: الفاعل أم المفعول به؟

وقال له يومًا: ما أبْيَنَ الشبَهَ في رجالكم يا بني هاشم، قال: لكنه في نسائكم أبين يا بني أمية[٧٨].

وقال الجاحظ: اجتمعتْ يومًا بنو هاشم عند معاوية، فأقبل عليهم فقال: يا بني هاشم، والله إن خيري إليكم لممنوح، وإن بابي لكم لمفتوح، وقد نظرت في أمركم فرأيت أمرًا مختلفًا، إنكم ترَون أنكم أحق مِنِّي مما في يدي، فإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم: أعطانا دون حقِّنا، وقصر بنا عن قدرنا، هذا مع إنصاف قائلكم، وإسعاف سائلكم، فأقبل عليه عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – وكان جريئًا عليه فقال: والله ما منحتنا شيئًا حتى سألناه، ولا فتحت لنا بابًا حتى قرعناه، وأما هذا المال، فما لك منه إلا ما لرجل واحد من المسلمين، ولولا حقنا في هذا المال لم يأتِكَ مِنَّا أثر تحمله خفٌّ ولا حافر، وأما حربنا إياك بصِفِّين فعلى تركك الحق وادِّعائك الباطل، أكَفَاك أم أزِيدُك؟ قال: كفاني[٧٩].

عن ابن سيرين قال: كان ابن الزبير أصلبَ أولاد المهاجرين وأصرمهم، فدخل مع معاوية البيت الحرام وكان للحسين حاجة، فأبى معاوية أن يقضيها، فأخذ ابن الزبير بيَدِ معاوية فغمزها، فقال:

---

٧٧ "ثمرات الأوراق" بهامش "المستطرف": جـ ١، ص ١٣٨– ١٣٩.

٧٨ "ثمرات الأوراق": جـ ١، ص ١٣٤، بهامش "المستطرف".

٧٩ "ثمرات الأوراق": جـ١، ص ١٣٥، بهامش "المستطرف".

خلِّني، فقال: لا والله تقضي حاجة حسين أو لأكسِرَنَّ يدك، قال: فقضاها، فقال له ابن الزبير: يا أمير المؤمنين، أكنت تراني كاسرًا يدَك؟ قال: ما كنت آمنك على ذلك٨٠.

وحكى صاحب "العقد" قال: بينما معاوية جالس وعنده وجوه الناس، إذ دخل رجلٌ من أهل الشام فقام خطيبًا وقال: لعن الله معاوية، فأطرق الناس وفيهم الأحنف، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل إن عَلِم أن رضاك في لعْن المرسلين لعنهم؛ فاتقِ الله ودعْ عنك عليًّا، فقد لقي ربه، وأُفْرِد بقبره، وخلا بعمله، وكان والله مبرورًا في سبْقه، طاهر الثوب، ميمون النقيبة، عظيم المصيبة، فقال له معاوية: يا أحنف، لقد أغضيت العين على القذى، أما والله لتصعدنَّ على المنبر وتلعن عليًّا طوعًا أو كرهًا، فقال: إن تعفني خيرٌ لك، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجدني شقيًّا به أبدًا، قال: وما أنت قائل يا أحنف قال: أحمدُ الله وأصلي على نبيه، ثم أقول: إن أمير المؤمنين أمرني أن ألعن عليًّا، ومعاوية وعلي اقتتلا واختلفا وادَّعى كلُّ واحد منهما أنه مبغيٌّ عليه، فإذا دعوت فأمِّنوا رَحِمَكم الله، اللهم العَنْ أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، أمِّنوا رحمكم الله، يا معاوية لا أزيد على ذلك ولا أنقص، ولو كان فيه ذهاب نفسي، فقال معاوية: إذًا أعفيتك٨١.

قال معاوية يومًا بحضرة عقيل بن أبي طالب: هذا أبو يزيد، لولا علمه بأني خيرٌ له من أخيه لما أقام عندنا وتركه، فقال عقيل: أخي خيرٌ لي في ديني، وأنت خير لي في دنياي، وقد آثرت دنياي، وأسأل الله خاتمة خير.

ولما التحق عقيل بمعاوية بالغ في إكرامه إرغامًا لعلي، فلما قتل علي واستقلَّ معاوية بالأمر ثَقُل عليه أمر عقيل، فكان يسمعه ما يكره لينصرف عنه، فبينما هو يومًا في مجلسٍ حفَل بأعيان الناس من الشاميين إذ قال معاوية: أتعرفون أبا لهب الذي أنزل الله في حقه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، فقال أهل الشام: لا، فقال معاوية: هو عمُّ هذا، وأشار إلى عقيل، فقال عقيل: أتعرفون امرأته التي قال الله في حقها: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ [المسد: ٤-٥] مَن هي؟ فقالوا: لا، فقال عقيل: هي عمة هذا، وأشار إلى معاوية، وكانت عمَّته أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبدشمس هي زوجة أبي لهب٨٢.

---

٨٠ "أخبار القضاة": جـ ٢، ص ٤٩.

٨١ "ثمرات الأوراق" بهامش "المستطرف": جـ ١ ص ١٣٨.

٨٢ "نكت الهميان": ص ٢٠١.

وقال أبو بكر بن دريد: أنبأنا أبو حاتم عن أبي عبيدة قال: قال معاوية: لقد وضعت رجلي في الركاب وهممت يوم صفِّين بالهزيمة، فما منعني إلا قول ابن الإطنابة حيث يقول:

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بَلائِي = وَأَخْذِي الحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ

وَإِكْرَاهِي عَلَى المَكْرُوهِ نَفْسِي = وَضَرْبِي هَامَةَ البَطَلِ الشَّحِيحِ

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ = مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي[٨٣]

وقال بعضهم: لما احتُضر معاوية جعل يقول:

لَعَمْرِي لَقَدْ عَمَّرْتُ فِي الدَّهْرِ بُرْهَةً = وَدَانَتْ لِيَ الدُّنْيَا بِوَقْعِ البَوَاتِرِ

وَأُعْطِيتُ خُمْرَ المالِ وَالحُكْمَ وَالنُّهَى = وَلِي سَلَّمَتْ كُلُّ المُلُوكِ الجَبَابِرِ

فَأَضْحَى الَّذِي قَدْ كَانَ مِمَّا يَسُرُّنِي = كَحُكْمٍ مَضَى فِي المُزْمِنَاتِ الغَوَابِرِ

فَيَا لَيْتَنِي لَمْ أُغْنَ فِي المُلْكِ سَاعَةً = وَلَمْ أَسْعَ فِي لَذَّاتِ عَيْشٍ نَوَاظِرِ

وَكُنْتُ كَذِي طِمْرَيْنِ عَاشَ بِبُلْغَةٍ = مِنَ العَيْشِ حَتَّى زَارَ ضِيقَ المَقَابِرِ

قال ابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان"[٨٤]: "ونقل أبو علي الغساني الجبائي أن عبدالله بن المبارك سُئِل: أيهما أفضل: معاوية بن أبي سفيان أم عمر بن عبدالعزيز؟ فقال: والله إن الغبار الذي دخل في أنف معاوية مع رسول الله ﷺ أفضل من عمر بألف مرة، صلى معاوية خلف رسول الله ﷺ فقال: سمع الله لِمَن حَمِده، فقال معاوية: ربنا ولك الحمد".

وختامًا: نسأل الله – تعالى – أن يعصمنا من الزلل والخطأ، والتجرُّؤ على الصحابة الكرام، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

٨٣ "البداية والنهاية": ج ٨، ص ١٢٩.

٨٤ ج ٢، ص ٢٣٨.

فهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢
معاوية أميرًا للشام	٣
معاوية في عهد الرسول ﷺ	٣
في عهد الخلافة الراشدة	٤
حكاية خرافية	٥
تدبير الله	٦
زعمه في سبب الخلاف الأموي الهاشمي	٧
أبو سفيان بن حرب	١٩
طعنه في معاوية	٢٢
خلط بين اسمين	٢٥
حديث المؤاخاة	٣٨
هند بنت عتبة	٦٧
إشادة بعتبة بن ربيعة	٦٨
تشكيك في أحقية عثمان بالخلافة	٧٠
تناوله لعلي	٧١
خلاف أبي ذر مع عثمان	٧٥
طعنه في عائشة	٧٨
طعنه في عبدالرحمن بن عوف	٧٩
قدحه في طلحة والزبير	٨٠
غمزه لعبدالله بن عمر	٨١

غمزه الحسن بن علي	٨١
طعنه في أبي قحافة	٨٢
طعنه في عمرو بن العاص	٨٢
فهرس	٩١